المركز القومي للترجمة

مولود فرعون

ابن الفقير

ترجمة

نسرين شكري



2097

سلسلة
الإبداع
القصصي

ابن الفقير

(روايـة)

تـــألـيـــف : مولود فرعون

ترجمة وتقديم : نسرين شكرى

2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنـور مغيـث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2097
- ابن الفقير
- مولود فرعون
- نسرين شكرى
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:
LE FILS DU PAUVRE
ROMAN
Par: Mouloud Feraoun

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فرعون، مولود
رواية ابن الفقير/ تأليف: مولود فرعون؛
ترجمة وتقديم: نسرين شكرى
ط١، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤
١٧٦ ص، ٢٠ سم
١- القصص العربية - الجزائر
(أ) شكرى، نسرين (ترجمة وتقديم)
(ب) العنوان ٨١٣

رقم الإيداع ٢٠١٢/٤٣٤٦
الترقيم الدولى (I.S.B.N. 978-977-704-989-4)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقـــديم

شـهد القرن العشرون ميلاد الأدب البربرى الناطق والمكتوب باللغة الفرنسية، ويعتبر ظهور هذا النوع من الأدب نتيجة مباشرة للاحتلال الفرنسى للجزائر الذى أدى إلى احتكاك الجزائريين بالثقافة الغربية، ومن رواد الأدب البربرى الناطق باللغة الفرنسية مولود معامرى ومولود فرعون وفاطمة منصور وكاتب يس وآسيا جبار. إن أسماء هؤلاء الكتّاب مرتبطة بالأدب المغاربى الناطق بالفرنسية، إلا أنه يعبر عن ارتباط وثيق بالثقافة البربرية والجزائرية. فمولود فرعون عبر مثل غيره من الكتّاب الجزائريين والمغاربة عن خصوصية تلك الثقافة فى جميع أعماله. بل إن فرعون ينتمى إلى تلك المجموعة من الكتاب التى جعلت من أدبها سلاحًا للدفاع عن هويتها ضد احتلال يعمل على طمس الهوية والخصوصية، ولعل ذلك ما دفعه لقول جملته الشهيرة: "أكتب بالفرنسية، وأتكلم بالفرنسية؛ لأقول للفرنسيين: إنى لست فرنسيًا" بهذه الكلمات عبر مولود فرعون عن مسيرته الأدبية التى كرسها بالكامل لرسم لوحة فنية وشعرية لحياة الجزائريين، وبالتحديد سكان منطقة القبائل (البربرية) فى

النصف الأول من القرن الماضى إبان الاحتلال الفرنسى. كل رواية تأتى لتكمل هذا العمل الفريد الذى يعبر عن أوجاع شعب يئن فى صمت وكبرياء تحت وطأة المحتل. فى الوقت ذاته تنشأ علاقة إنسانية بين القاهر والمقهور، علاقة أشبه بالسجين والسجان، علاقة بها رهبة، ألفة وتمرد. ربما هذا ما دفع مولود فرعون ليكتب بلغة المحتل ليعلن له تمرده، ولكنه تمرد عذب ورقيق مثل الكاتب.

ولد مولود فرعون ٨ مارس ١٩١٣، قبيل الحرب العالمية الأولى، بمنطقة تيزى هيبل بقبائلية وينتمى إلى آل شعبان، إلا أن الاحتلال هو الذى أعطاه اسم فرعون، كما تؤكد الناقدة الفرنسية سيلفى تينو فى مقالة بعنوان "مولود فرعون، كاتب فى خضم حرب الجزائر"(١). بعد عصيان عام ١٨٧١ قررت فرنسا أن تحكم قبضتها على منطقة القبائل، وذلك بإعداد سجلات للأفراد وتسجيل أسمائهم، غير أن القبائل البربر سكان تلك المنطقة من الجزائر لا يتحدثون الفرنسية ولا العربية. وجدت سلطات الاحتلال الفرنسى صعوبة فى التواصل معهم، فقررت أن تطلق أسماء مجازية على كل عائلة، غير أن تلك الأسماء هى ما احتُفِظ به فى السجلات والأوراق الرسمية وهكذا صار مولود شعبان هو مولود فرعون. فرعون هو الاسم الذى اقترن به، والذى أعطاه له الفرنسيون.

---

(1) THENAULT, Sylvie, Mouloud Feraoun, un écrivain dans la guerAre d'Algérie, dimanche 31 décembre 2006, in http://www.ldh-toulon.net/spip.php?article1748.

ويتضح ذلك أيضًا من خلال رواية "ابن الفقير" التى يحكى فيها عن صبى صغير يشبهه تمامًا وينتمى إلى عائلة شعبان:

"عمى وأبى يحملان اسمىْ رمضان ولونيس، غير أنهم فى الحى اعتادوا أن ينادوهم باسم "أبناء شعبان"، لا أعرف حتى الآن لماذا؟"

ولد فرعون فى عائلة فقيرة وفى مثل تلك الظروف كان يسهل التنبؤ بمستقبله: راعى أغنام فى قريته، إلا أن الأقدار قدمت له الكثير؛ فعلى الرغم من الفقر المدقع، أصر والده على إرساله إلى المدرسة الابتدائية وربما حالفه الحظ فى ذلك؛ لأنه الصبى الوحيد بين شقيقاته. كانت أولى خطاه فى التعليم غير موفقة، غير أنه سرعان ما انتبه وعرف مذاق التفوق، مذاقًا خاصًا غلفه القلق، قلق من لا يعرفون الثراء وعليهم أن يحصلوا على كل شىء بكد وعرق، تحدى مولود فرعون ظروفه القاسية والمصاعب المختلفة بمثابرته واجتهاده وصراعه مع واقعه القاتم. التحق فرعون بالمدرسة الإعدادية بتيزى أوزو عام ١٩٢٨ وفى مدرسة المعلمين ببوزريعة بالجزائر العاصمة بعد ذلك، ورغم وضعه البائس تمكن من التخرج فى مدرسة المعلمين، وانطلق للعمل بعد تخرجه، فاشتغل بالتعليم حيث عاد إلى قريته تيزى هيبل التى عين فيها مدرسًا سنة ١٩٣٥ ميلاديا فى الوقت الذى بدأ يتسع فيه عالمه الفكرى وأخذت القضايا الوطنية تشغل اهتمامه. وكما أعطى من علمه لأطفال قريته أعطى بالمثل له للقرية

التى احتضنته تلميذا للقرب من مسقط رأسه بأقل من ثلاثة كيلومترات، وهى قرية تاوريرت موسى التى التحق بها معلما سنة ١٩٤٦ فى المدرسة نفسها التى استقبلته تلميذًا وعين بعد ذلك سنة ١٩٥٢ مديراً لإحدى الإدارات التعليمية. أما فى عام ١٩٥٧ فقد التحق بالجزائر العاصمة مديرًا لمدرسة (نادور) (فى المدينة حاليًا) كما عين فى ١٩٦٠ مفتشًا لمراكز اجتماعية كان قد أسسها أحد الفرنسيين فى ١٩٥٥ وهى الوظيفة الأخيرة التى اشتغل بها قبل أن يسقط برصاص الغدر والحقد الاستعمارى فى ١٥ مارس ١٩٦٢.

فى كتابها "مبدعون حتى النهاية"، تروى الناقدة د. زينب العسال مشهد تصفية مولود فرعون المأساوية:

"فى ١٥ مارس ١٩٦٢، كانت جماعة من المعلمين الجزائريين تعقد اجتماعًا روتينيًا، لمناقشة بعض أوضاعهم.

اقتحم المكان فجأة عدد من الجنود الفرنسيين، بأيديهم المدافع الرشاشة..

لم يسأل أحد الجنود عن هوية المجتمعين، ولا طبيعة الاجتماع، افترضوا أن الجالسين يخططون لعملية ضد الاحتلال الفرنسى، وقرروا أن يعاقبوهم بالإعدام، وزادوا فقرروا أن يكون التنفيذ حالاً.

أشار القائد إلى الجنود على رشاشاتهم، فتهاوى المعلمون فى دمائهم. وكان من بينهم مولود فرعون أحد أهم أدباء الجزائر المعاصرين"(٢).

تتداخل حياة مولود فرعون مع تاريخ الجزائر الحديث، فلا يمكن فصلها عن تلك المرحلة المصيرية من تاريخ الجزائر؛ حيث ظهر جيل من الشباب الجزائرى المثقف والمتعلم، كان بمثابة شرارة الثورة ضد الاحتلال الفرنسى.

علاوة على ذلك، يتميز أدب مولود فرعون بأنه يعبر عن ثقافة سكان قبائل البربر وخصائصهم، ويتضح ذلك من خلال عناوين أعماله. على سبيل المثال يمكننا ذكر كتابين أحدهما بعنوان (أيام قبائلية) ويتكلم فيه عن عادات وتقاليد المنطقة، والآخر بعنوان (أشعار سى محند)، إلى جانب (الذكرى) - (الدروب الوعرة) - (الأرض والدم) وكلها تتناول المعاناة الجزائرية فى ظل قهر الاستعمار، والمحاولات العديدة لطمس الهوية.

رواية "الدروب الوعرة" Les chemins qui montent (الترجمة الأدق لغويا هى الدروب الصاعدة ولكن الدروب الوعرة أصح فى التعبير عن مضامين الرواية) تبرز ذلك العالم المنغلق، الذى لم يمسسه الزمن، وهو ينسف تحت هجوم العصر، والطبيعة الشاقة والمأساوية أحيانًا لتأثير

---

(٢) د. زينب العسال، مبدعون حتى النهاية، طبعة كتاب الجمهورية، القاهرة، ٢٠٠٩.

هذا الصدام بين الجديد والقديم فى وعى الناس وسلوكهم. والرواية دراما عاطفية، حيث نجد مثقفًا قرويا، منعزلا فى قرية قبائلية نائية، ومنفصلاً عن العالم، وبعيداً عن التاريخ، نجده يكتب مذكرات لا حاجة لأحد بها فى وقت يقوم فيه جميع المثقفين الجزائريين بالثورة، والرواية تصور حيرة وارتباك جيل نضج. ويستمر فرعون فى "الدروب الوعرة"، يصور عالم القيم القديمة المتفجر، فى تغذية الأمل فى الأشكال الإنسانية للتخلص من العبودية. الرواية ليست مجرد قصة حب وغرام، وغيرة وانتقام، بل وراء هذه العواطف المحتدمة يكمن صراع بين القديم والجديد، بين الشيوخ والشباب، بين التبشير والإسلام.. ببساطة إنها "رواية هوية" على شاكلة العديد من روايات الكتاب الجزائريين خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية البغيضة لبلد المليون شهيد.

كما ذكرنا سلفًا تمت عملية الاغتيال فى وضح النهار وسقط إلى جانبه خمسة من العاملين فى قطاع التعليم بعد أن تم اقتيادهم جميعا من غرفة الاجتماعات وأمروهم بوضع أيديهم اتجاه الحائط وبعدها انطلقت آلة الموت تحصد الأرواح البريئة.

قبل ذلك بسنوات كتب مولود فرعون وهو يصف قيمة الإنسان المسلم العربى فى نظر الهمجية الاستعمارية: "فكم تساوى حياة المسلم؟ إنها فى هذه الحالة لا تساوى أكثر من طلقة مدفع رشاش بل ربما تساوى أقل من ذلك". نعم لم تكن قيمة الإنسان الذى يطلب الحرية فى نظر المغتصبين أكثر من طلقة رشاش ورصاصة غادرة تستجلب الغربان

والنواح. لكن ذلك كله لن يثنى التاريخ عن السير فى مجراه الطبيعى عندما تفيق الضمائر وتتحرك العزائم من جديد ألم يكتب:"لماذا ينكرون على هذا الشعب أن يكون كما يريد، نعم كما يريد، هذا الشعب لن يتغير.. إننا نشعر... باستعادة هذا الشعب لروح أجداده البدائية الخام". وهؤلاء الذين سقطوا من أجل أن تحيا الجزائر لهم المجد والذكر الحسن؛ لأنهم ضحوا بأنفسهم لتعبيد الطريق "لكى يستطيع الآخرون رفع هاماتهم من أجل خلاصهم إزاء الإنسانية المخجلة المتآمرة".

وكان يعبر باستمرار عن المفارقة بين القوى الظالمة الاستعمارية والشعوب الباحثة عن "الدروب الوعرة" فى التاريخ كى تفك قيد الذل المسلط عليها. كتب يصف الطبيعة الاستعمارية يقول:" إن مظاهر طبيعتهم نحونا ليست سوى مظاهر كراهيتهم لنا... لكن كراهيتهم هذه كانت ذكية لدرجة أننا لم نفهم لقد أخذناها على أنّها طيبة فأصبحوا هم الطيبين ونحن السيئين أصبحوا هم المتحضرين ونحن البرابرة هم المؤمنين ونحن الكفرة، هم السادة ونحن السفلة، هذا ما نجحوا فى إدخاله فى اعتقادنا". ولذلك لا يتوانى المستعمر فى استعمال أى وسيلة لفرض هيمنته "إذ كل الناس عندنا مشكوك فى نواياهم، ومن أجل هذا لا بدّ أن يحنوا ظهورهم كى يتلقوا لسعات السياط الملهبة..."

لهذا لا نستغرب إصرار سلطات الجزائر وشعبها على مطالبة فرنسا بالاعتذار عن جرائم الحقبة الاستعمارية قبل التوقيع على معاهدة الصداقة والتعاون، وهو المشروع الذى قبر أمام إصرار فرنسا على

الاحتفال بعصرها الاستعماري والاحتفاء بما قدمه للإنسانية من تقدم ورقى ومبادئ إنسانية!

عند قراءة الأدب البربرى المكتوب بالفرنسية، علينا أن نعلم أن له معالم خاصة بحكم أنه يستقى جمالياته من الأرض والتاريخ العظيم لتلك الأمة التى عاشت لقرون تحاصرها الجبال التى نحتت طباعها وعاداتها كما يؤكد مولود فرعون فى رواية "ابن الفقير":

"الغرور هو أكثر العيوب التى تثير سخريتنا، ربما، لأننا جميعًا أقارب أو أصهار،

تجمع أسلافنا – على ما يبدو – بدافع الضرورة.

فقد عانوا طويلاً من العزلة حتى إنهم قدروا حقا ميزة أن يعيشوا متحدين."

يقدم لنا الكاتب من خلال عمله هذا العالم القاسى الذى لا يعرف الرحمة، ولكن تظل القلوب تنبض بالحب والحياة؛ رغبة جارفة فى العيش مهما كانت مصاعب الحياة.

نسرين شكرى

العــائلة

سوف نعمل لأجل الآخرين حتى الشيخوخة، وعندما تحين الساعة سنلقى حتفنا بلا همس، وسنقول في العالم الآخر إننا عانينا، إننا بكينا، إننا عشنا سنوات طويلة مريرة وسوف يرأف الله لحالنا".

تشيخوف

(١)

يعيش منراد، وهو معلم متواضع، فى قرية بمنطقة القبائل "وسط المكفوفين" غير أنه لم يحسب نفسه ملكًا؛ ذلك لأنه يؤمن فى المقام الأول بالديمقراطية، علاوة على ذلك لديه قناعة مطلقة بأنه ليس عبقريا. ليتوصل إلى هذا الرأى الصادم بشأن ذاته، احتاج لسنوات طوال، ذلك لا يقلل من شأنه بل على العكس.

منذ شهوره الأولى فى مهنة التعليم، بعد دراسته، باح فى مذكرته - لأنه يحتفظ بمذكرات - "عندما أغوص فى أعماقى، أقيم وضعى من خلال قيمتى، فأستنتج بمرارة الآتى: أشعر أنى مغبون، فقلة الإمكانات ما هى إلا عائق خداع! غير أن استنتاجى لا يتوقف هنا. بما أنى أتمتع بذكاء حاد بوجود الكتب والكراسات القديمة، فلاشىء يمكنه القول إننى لن أذهب بعيدًا...". "انتهى الأمر، اتخذت القرار، النجاح آت لا محالة. كلما تذوقت دراسة أولية على الشاعر" رونسار" ومدرسة "لابلياد" (١)(*)، عقدت عزمى أكثر وصار النجاح فى الامتحان أمرًا سهل البلوغ.

---

(١) مدرسة لابلياد هى مدرسة أدبية أسستها مجموعة من الأدباء الفرنسيين فى القرن السادس عشر، ومن روادها رونسار؛ وهى تعتنى باللغة الفرنسية وبجمالياتها.
(*) جميع الهوامش للمترجمة، ما لم يذكر عكس ذلك.

منراد طموح إلا أنه يسخر من الطموح، فهم هذا التعس أنه إذا حاول أن يحلق مثل النسر سينتهى به الأمر بالتعثر مثل البطة.

لذا اكتفى أن يكون مجرد معلم فى قرية كتلك التى شهدت ميلاده، فى مدرسة ذات فصل واحد، وسط كل الفلاحين إخوته، متحملاً معهم أوجاع العيش بروح هادئة تمامًا ومنتظرًا مثلهم - بقدرية غير مبالية ويقين مطلق - كما يقول - اليوم الذى سيدخل فيه جنة محمد.

هذا التصرف، الذى يستحق تمامًا الثناء، ليس بتصرف شخص متشكك. فمنراد التعس ليس بفيلسوف، بل ينبع من شعور حاد بالضعف. بعدما انسحب من الامتحانات، أراد أن يكتب. اعتقد أنه قادر على الكتابة، غير أنه لم يكتب شعرًا، ولا حتى دراسة نفسية ولا حتى رواية مغامرات؛ لأنه لا يملك خيالاً. لكنه قرأ "مونتنى" وروسو، كما قرأ دوديه وديكنز (من خلال عمل مترجم). وأراد مثل كل هؤلاء الرجال العظماء أن يروى قصته، قلت لكم إنه متواضع، فبعيداً عن مقارنة نفسه بهؤلاء العباقرة، نوى فقط أن يستعير منهم الفكرة "الفكرة السخيفة" الخاصة برسم سيرته. اعتقد أنه إذا استطاع أن يقدم شيئًا متسقًا، كاملاً ومقروءاً سيشعر بالرضا. اعتقد أن حياته تستحق أن تكون معروفة على الأقل من أبنائه وأحفاده. عند اللزوم، لن يحتاج إلى طباعتها، سيتركها بخط اليد.

بدأ فى العمل عام ١٩٣٩، فى شهر أبريل، أثناء إجازة عيد الفصح، وقت سعيد!

أمام العوائق التى لا تحصى والتى ستظهر مع كل صفحة، وفى نهاية كل فقرة، أمام الكلمات التى تأتى فى غير موضعها، والصيغ الملتبسة والنعوت غير الدقيقة، تخلى عن عملية تفوق قواه، وانسحب بعد أن ملأ كشكولاً كاملاً، وانسحب بلا إرادة فى العودة، بلا انفعال.

فى فصله يوجد مكتب أسود وبسيط.

فى أحد الدرجين، ترقد اليوم هذه التحفة الأدبية التى لم تر النور، منسية بين كراسة لف وأوراق تحضير، تمامًا مثل البيضة الخامسة لطائر الدّخلة التى يتركها الطير وصغاره بازدراء فى العش لعدم أهميتها.

لا أحد يملك مقادير أموره، يا الله يا رحيم! إذا ما اختارت السماء أن تعرف قصة منراد فوروُلو، فمن يستطيع أن يتحدى مشيئتك؟

لنخرج من الدرج الشمال الدفتر المدرسى. لنفتحه: فوروُلو منراد، نحن نسمعك...

(٢)

عن قناعة أو عن واجب، ينبهر السائح الذى يجرؤ على دخول قلب منطقة القبائل بمواقع يجدها بديعة وبمناظر تبدو له شاعرية، كما أنه يشعر بتعاطف غامر تجاه عادات سكانها.

يمكن تصديقه بلا مشكلات طالما يجد فى كل مكان المواقع البديعة ذاتها، الشاعرية ذاتها، ويشعر بنفس التعاطف. لا يوجد سبب قد لا يجعلك ترى فى منطقة القبائل ما تراه أيضًا فى كل مكان.

أتقدم بألف اعتذار لكل السائحين. لأنكم تمرون كسائحين تكتشفون المواقع البديعة والشاعرية. يتوقف حلمكم عند عودتكم إلى دياركم، وتنتظركم على الأعتاب السطحية.

نحن سكان منطقة القبائل نتفهم عندما يُثنى على بلادنا، كما نحب أن يُخفى قبحها تحت مسميات مُطرية. على الرغم من ذلك نحن نتخيل الانطباع غير المؤثر الذى يتركه على السائح الأكثر تعاطفًا منظر قرانا الفقيرة.

تعد تيزى تجمعًا سكانيًا لألفى ساكن، تتلاصق منازلها الواحد تلو الآخر على قمة مرتفع وكأنها هيكل عظمى ضخم لوحش ينتمى إلى

عصر ما قبل التاريخ: على طول مائتى متر، يقع الشارع الرئيسى وما هو إلا جزء من طريق قبيلة يربط عدة قرى ويؤدى إلى طريق ممهد ومنه إلى المدن.

يحتفظ هذا الشارع الرئيسى بعرضه الأصلى فى المناطق التى يحدُّه فيها حائط من جانب واحد: ستة أذرع على الأقل؛ لأنه ما تم بناؤه على جانبيها غالبًا ما تآكل، كما أنه يثير الشفقة فى محبسه الحجرى. قد تختنق إذا لم تعط الحياة بين مسافة وأخرى، تارة فى اتجاه اليمين وتارةً فى اتجاه الشمال لأذرع صغيرة عشوائية، على شكل حوارى تضيق على الجانبين وتمتد حتى الحقول.

إذا اتبعنا منطقًا سديداً، كيف يقتضى معاملة شارع ما إلا جزء من طريق بشكل مختلف عن الطريق، لم يوجب رصفه إذا لم يكن الطريق كذلك؟ كلاهما تربى فى الصيف، غير أنه فى الشتاء، تتراكم فيه الأوحال أكثر، حيث إنه يتم ارتياده بشكل أكثر. لهذا السبب، يظل الشارع قذراً، هذا هو الاختلاف الوحيد. أما الحوارى، فهى تشبهه لأنها خرجت من رحمه.

لنتخيل فى نقطة ما حارتين متقابلتين اتجاه إحداهما إلى اليمين، والأخرى إلى الشمال. فى هذا المكان، يتسع الشارع. هل السبب فى ذلك صدفة غامضة أم قرار حجتها غير معروفة فى الوقت الحالى؟ لم يقم أسلافنا بالبناء فى الزوايا الأربع لمفترق الطرق: فأنتم فى الساحة الكبرى بالقرية، "ساحة الموسيقيين"، حيث يوجد مجلس الشيوخ؛

تعد هذه الساحة فريدة من نوعها حتى إن سكان الحى الواقع بالأعلى يحسدون سكان الحى الأدنى. تُشكل ألواح كبيرة من الصخر الزيتى – وضعت على مساحة خمسين سنتيمترا من البناء غير المستقر والذى يتكئ على جملونى المنازل – مقاعد التدجاميت[٢] ويجلس عليها الرجال والأطفال. أرادت ظروف خاصة أن يحظى أحد المقاعد بسقف يظلله، إنه المقعد المفضل نظراً لطراوته فى الصيف ولأنه يأوى فى الشتاء. عندما تدخل مجلس الشيوخ من جهة الشمال، يقع هذا المقعد جهة الشمال، تحديداً أمام حارة سد، يقطعها على بعد عشرين متراً مدخل مسكن، يزين هذا المقعد بالتحديد أفضل لوح، لوح من الرخام، رخام أصلى ولونه عسلى لامع وقد جلاهُ الوقت والاستعمال.

تضم القرية ثلاثة أحياء وبالتالى ثلاثة مجالس شيوخ. كل مجلس يضم مقاعد من الحجر وألواحاً لامعة. نجد فى كل مكان، مربعات ثابتة محفورة بداخل الألواح حيث نلعب بالحصى. غير أن أحداً لا يستطيع الادعاء بأن المجالس الأخرى تضاهى "ساحة الموسيقيين".

يوجد أيضاً مسجدان، إلا أن المساجد لا تظفر بمثل أهمية المجالس. إذا نظرت إليها من الخارج، فهى تشبه المنازل الأخرى المجاورة لها. بالداخل، الأرض أسمنتية والجدران يكسوها اللون الأبيض، كما أن

---

(٢) هى عبارة عن مقاعد من الحجر يجلس عليها الرجال والأطفال فى مجلس القرية؛ ليتبادلوا أطراف الحديث.

المكان فارغ وحزين لبساطته، يبدو العجائز الذين يذهبون للصلاة فيه وكأنهم ينتمون إلى عصر قد ولى. يقع المقهى المغربى خارج القرية، على من يهتمون لأمره البحث عنه والخروج من التجمع السكنى.

بعض المساكن الشاهقة أقيمت مؤخراً بفضل المال الذى أحضر من فرنسا. تزهو هذه المنازل بوجهاتها على غير استحياء وبأسطحها من القرميد شديد الحمرة وسط القبح العام، فتشعر أن هذا الترف ليس فى موضعه فى مثل هذا الإطار، علاوة على ذلك، لا نشعر بالفخر حياله. على بعد، تبدو تلك المنازل وكأنها بقع بيضاء لا تنسجم مع الشكل العام والذى صبغه لون الأرض. نحن نعلم أنها من الداخل تشبه باقى المنازل، حتى إنها ينطبق عليها بحق المثل الذى يحقر من شأنها: "إسطبل منيل: الواجهة لامعة أما الداخل يملؤه الروث والدواب".

الغرور هو أكثر العيوب التى تثير سخريتنا، ربما؛ لأننا جميعًا أقارب أو أصهار،

تجمع أسلافنا- على ما يبدو - بدافع الضرورة.

فقد عانوا طويلاً من العزلة حتى إنهم قدروا حقًا ميزة أن يعيشوا متحدين. فتغمرنا السعادة؛ لأن الجيران يقدمون خدمات، يساعدون، يقرضون، يغيثون، يتعاطفون أو على الأقل يتقاسمون قدرنا! نحن نخشى العزلة مثل الموت، غير أن هذا لا يمنع المشاجرات والمشاحنات العابرة، والتى يعقبها المصالحة حول احتفال ما أو مصيبة ما. "نحن جيران لننعم

بالجنة وليس للمشاجرة"، هذا أحد ألطف أمثالنا. فجنتنا هى جنة على الأرض، ولكنها ليست بالتأكيد جهنم.

لا يهم إذا كان لكل حى سلفه، فقد احتفلنا منذ أزل بزيجات عدة بين العائلات حتى صار تاريخ القرية، فى الوقت الحالى، مثل تاريخ شخص. لا تنفرد عائلة بمركز اجتماعى أو حتى بألقاب نبلاء. ولدينا حتى الآن أشعار تتغنى بأمجاد أبطالنا، أبطال ماكرين مثل يوليسيس، فخورين مثل ترتارين وفى نحافة دون كيشوت.

على سبيل المثال، ينحدر سكان الحى الأدنى من مزوز، رُزق مزوز بخمسة أبناء من الذكور الذين أعطوا أسماء هم إلى الخمس أسر المكونة للكاروبا(٣). لذا فالعائلة تضم كلا من عائلات رباح وسليمان وموسى ولاربى وقصى. أما البشيرين، فجدهم ما هو إلا لاجئ من منطقة جورجورة وهم لا يفخرون بأصولهم. فى أغوارهم، يساورهم إحساس بشىء من الدونية. غير أن فى الوقت الحاضر، لم يعد أحد يفكر فى ذلك حتى إنهم صاروا يعتقدون أنهم من نسل مزوز. على الرغم من ذلك، ففى بعض المواقف الخطيرة، ننعش ذاكرتهم ولكن لا يحدث ذلك إلا من أجل مصالح كبرى.

علاوة على الأصل الواحد، نحن نعيش الظروف ذاتها؛ لأن كل سكان منطقة قبائل الجبال يعيشون بالطريقة ذاتها فلا يوجد غنى ولا فقير.

---

(٣) الكاروبا تعنى فى لغة سكان منطقة القبائل: العائلة الكبيرة التى يندرج تحتها عدة عائلات مستقلة، لكنها تنتمى جميعها إلى أصل واحد إلى الكاروبا.

بالتأكيد، هناك نوعان من البشر: من يؤمنون احتياجاتهم بشكل منتظم، ومن يمرون بأيام عسيرة وأخرى يسيرة، فينتقلون من الفقر المدقع إلى العيشة الرغدة لمن أعزتهم السماء. لكن يصعُب التصنيف بشكل قاطع أو حتى التمييز بين نوعية الحياة ما بين السكان.

تملك الأسر الثرية عدة حقول تين، وبعض حقول الزيتون، وهكتار أرض للزراعة وأحيانًا بئر ماء فى أحد حقولهم. عندما نقيم فى مجلس الشيوخ، مكاسب فلاح ما خلال شهر من العمل، نقرأ الإعجاب والحسد فى العيون. إن يومًا من العمل على أرضينا الوعرة والمنحدرة بجاموستين تكاد تكون فى حجم الخراف لا يسمح بسوى حرث ألفى متر مربع، فلا يملك إذن أكبر الملاك من سكان القبائل مساحة تتعدى الستة هكتارات. فى مجلس القرية، تسمع صوته عاليًا، وفى بيته، هو سيد بلا منازع، على الأقل نتركه يعتقد ذلك.

ليبقى على السلطة والإعجاب، الميزتين الوحيدتين لثرائه، يكدح أكثر ممن ما لا يملك شيئًا، يعمل مع عماله ليكون بمثابة مثال يقتدى به، يأكل ويلبس مثلهم، لكنه لا يشاركهم متاعبهم تمامًا مثل الرأسمالى فى حكاية لافونتين.

علاوة على ذلك يملك بهائم: جاموستين، وبقرة، وبعض الخراف، وجحشًا أو حمارًا.

يضم مسكنه حجرتين متقابلتين (عرضهما اثنا عشر ذراعًا وطولهما أربعة عشر ذراعًا) وحجرة أو حجرتين صغيرتين للابن البكر أو عابرى السبيل. بُنيت كل المساكن مِن ألواح من الصخر الزيتى يربطها خليط من الرمال والطين، أما السقف فيتكون من قرميد أجوف يستقر على البوص، الأرض، وقد تمت تسويتها جيداً، تغطيها طبقة من الجير المجلى واللامع ذات لون أصفر باهت، وتعطى تلك الطبقة انطباعًا بالنظافة والأناقة الريفية، على الأقل عندما تكون حديثة. ربات البيوت التى تتمتع بذوق تغطى، بنفس الطريقة، فى كل حجرة، مساحة متر من الأرض وتزخرفها عند نهايتها بخط أخضر غير مستو تحصلن عليه عن طريق الباذنجان المهروس. أما المنطقة الواقعة بين أعلى الجدار إلى السقف، يتم طلاؤها باللون الأبيض الذى نحصل عليه بصعوبة فائقة. يعد الترتيب الداخلى للمسكن من شؤون ربات البيوت، فهو يشكل بالنسبة لهن مصدر متاعبهن وفخرهن. وطبقًا لرخاء الأسرة، يتم تجديد الطلاء بشكل دورى كل عام، أو عامين أو ثلاثة.

تشتمل كل حجرة كبيرة على منطقة منخفضة تستخدم كإسطبل ومخزن للحطب، ويفصلها عن المنطقة العلوية دعائم قصيرة وعريضة تحمل السندرة. تحوى السندرة أوانى المؤن، أوانى الزيت وخزانات العائلة. يخصص الجزء الأعلى للسكن. أثناء النهار، يتأرجح فراش السرير بطول قضيب سميك مثبت بحوامل السقف. الموقد يوجد فى أى مكان من الحائط المواجه للإسطبل. أعلى المنزل، دعامتان متوازيتان تلتقيان مع الحائطين الآخرين. تحمل الدعامتان أشياء عديدة:

فى الشتاء، سلالا تحوى ثمرات البلوط التى يساعد على حفظها دخان الموقد، وخشباً أخضر يجف أعلى النار بمترين، ولحمة خروف العيد التى يكتسب دهنها رائحة السمك المدخن.

لا تشبه الحجرات الصغيرة كل ذلك، تستلهم بساطة المستطيل دون أن تكون منتظمة الشكل. الجير الذى دُهنت به الحوائط أكثر من الحجرات الكبيرة؛ لأن الدخان لم يترسب كثيراً على الحوائط، فلا تشعل بتلك الحجرات النار إلا فى ليالى الشتاء. عادة ما تكون الباحة ضيقة، أحيانًا، أعلى بوابة الدخول، يوجد برج حمام يمكن الولوج إليه عن طريق سلم ثابت بسيط أو سلم متنقل بدائى. إنها غرفة إضافية. بالأسفل، على جانبى البوابة، تم بناء مقعدين واسعين تكسوهما سيدة المنزل بالجير فى سنوات الرخاء.

تلك إذن قائمة دقيقة بمظاهر الثراء الخارجى. لا يوجد أبدًا أبهة؛ لأن الجميع يعلم أن الرجل الثرى بخيل. بخيل ليحفظ - غيوراً - ثراءه وليزيده إذا ما احتاج. فالبخل ميزة أساسية لتصبح ثريا ولتبقى على هذا الوضع. لا أحد ينقم البخلاء، على العكس، فهم يثيرون الإعجاب.

تنتهج العائلات الفقيرة نهج العائلات الغنية إذا استطاعت، فيما عدا ذلك فتظل منتظرة. الفقير لا يملك أراضى أو يملك القليل، شىء يشغله وقت الفراغ، منزله ما هو إلا حجرة واحدة، يشاركه فى الباحة الصغيرة جيران أكثر فقرا منه ومجلس القرية مع الجميع، لم يعتد الفلاح أن يمضى ساعات الراحة فى منزله وسط النساء والأطفال.

المجلس مهرب آمن، دائمًا متاح ومجانى. أما المقهى، فلا يجذب سوى الشباب والكسالى.

قد يكون لدى الفقير حيوانات، حيوانات لم يشترها، إلا أن آخر قد أودعها لديه، وقت البيع، سيحصل على جانب من المكسب. يمكنه العمل باليومية، إنه يعمل حتى يعيش بشكل أفضل. يحاول تقليد جاره الثرى فى الوقت الذى يحاول جاره تقليده. سرعان ما لا يتفقان؛ لأنه كثيراً ما يحدث أن تحسد زوجة الثرى حلى زوجة الفقير، وأبناؤه يحسدون مصير زملائه الأكثر فقراً. غير أن ذلك الوضع لا يستمر طويلًا، شتاء ممطر، مرض، مصاريف غير متوقعة، سفر رب الأسرة إلى فرنسا، حظه العسر أو عدم اكتراثه يكفى لإعادة الأمور إلى نصابها. يظل الثرى دائمًا بخيلاً، والفقير يزدرى أو يطمع فى فقر الثرى.

خلاصة الكلام، فى تيزى، نحن نعرف بعضنا، نحب بعضنا البعض أو نغار من بعضنا البعض، كل منا يدير دفة سفينته على قدر استطاعته، غير أنه لا توجد طبقات اجتماعية، ثم كم من الفقراء جمعوا المال حتى أصبحوا من الأغنياء، كم من الأغنياء صاروا سريعًا من الفقراء قبل أن يفلسه تمامًا على يد القرض سعيد، ذلك الرجل الذى يحترمه الجميع، يخشونه ويحتقرونه. بالتأكيد، سيأتى دوره وسيموت شحاذاً، القانون بلا استثناءات، إنه قانون إلهى، جميعنا على وجه الأرض علينا أن نعرف الغِنَى مثل الفقر، لا أحد ينتهى كما بدأ، يؤكد العجائز، هم بالتأكيد يعلمون شيئًا!

(٣)

يمتلك والدايَ مسكنهما فى أقصى شمال القرية، فى الحى الأدنى، ينحدر أصلنا من عائلة مزوز ومن أسرة موسى، لقبنا منراد.

عمى وأبى يحملان اسمى رمضان ولونيس، غير أنه فى الحى اعتادوا أن ينادوا باسم "أبناء شعبان"، لا أعرف حتى لماذا. أصبحا يتيمين منذ نعومة أظافرهما حتى إن أبى لم يعرف قط جدى. غير أنه ينبغى مناداتهما باسم "أبناء تساديت"، جدتى. يفضل بالتأكيد أعمامهم وأبناء عمومتهما تخليد اسم شعبان ليظهروا جيداً للناس أن اليتيمين لهما أصل وأنهما يحلان محل أبيهما. فى البادية، كانت هذه الطريقة جديرة بالثناء. لكن مع الوقت، صار الأطفال رجالاً، إلا أن هذه التسمية الجماعية تقلل من شأنهما؛ لأن الجميع يتحدث عنهما وكأنهما شخص واحد. على الرغم من ذلك، لم يكن بينهما أى وجه شبه.

تقاسيم وجه عمى لونيس صغيرة، نظرته ساخرة وبشرته فاتحة. يتسم بالدقة والنظافة، أتذكره دائمًا بجلبابه الأبيض وعمامته الملفوفة بعناية. أتخيله قليلاً فى يده فأس وقد شد حزامًا به مسامير ذهبية حول

جسده، ربما يحدث ذلك فى بعض المرات، فى هذه الحالات، يتعامل مع أدواته برعونة، ويظهر عدم الرغبة فى العمل ولا يحسن صنعًا. بالتأكيد، هو أفضل فى مجلس الشيوخ، يعلم الناس أنه صريح وعصبى، كلامه مؤثر، تثار حفيظته مثل النار فى الهشيم. كان من بين أكثر الشباب أناقة فى القرية. لهذا السبب، استقر فى مكان مميزًا فى قلب أمه، علاوة على ذلك، فهو ابنها البكر. كانت جدتى تعشق ترديد أنه ساعدها فى تربية رمضان الصغير. فى الحقيقة، لم تستطع قط السيدة المسكينة الاعتماد عليه. كان جليًا أنها كانت ضعيفةً أمام لونيس، فقد ورث عنها حسن الخلقة، كما أنه أول عطية. كانت ترى نفسها مجسدة فى ابنها البكر: الابتسامة نفسها، الوجه المستدير نفسه؛ نبرة الصوت نفسها.

أما رمضان فهو يشبه أباه شعبان، ربما أراد القدر أن يمنحه بعض العزاء واضعًا بين يديه طريقة لتخيل أبيه. رمضان أسمر اللون وأكثر صلابة من أخيه، كما أن جسده ممتلئ، إنه نموذج فلاح القبائل الشرس ومفتول العضلات. أما عن وجهه، فهو نسخة من شعبان، كما تردد جدتي: جبهة مربعة، أنف صغير أفطس، شفتان نحيفتان، عظام الوجه واسعة. كما احتفظ بنظرة والده حتى إنه ورث عنه عادة إغلاق عينه اليسرى عندما ينظر إليك. فى شبابه، حاولت جدتى عبثًا إثناءه عن هذه العادة القبيحة، كما حاولت أن تعدل من طريقة سيره متثاقلاً مثل الدب، قدماه متباعدتان. وتلك الطريقة، تبديه فى كل خطوة وكأنه على وشك مجابهة عدو أو حمل عبء. اعتبرته جدتى دائمًا شخصًا ثقيل الظل

وقنوعًا للغاية. ليس ثرثارًا مثل أخيه، غير أنه خجول لدرجة الفظاظة، منغلق كما أنه غليظ الطباع وثقيل الروح وكأنه مقدرًا له العمل كفلاح. غير مبالٍ، قبل دوره. لم تمنعه أصابعه الغليظة من عزف الفلوت على نحو رائع. غير أن جيله من الشباب هو فقط الذى على دراية بتلك الموهبة. كان يعشق والدته وأخاه، إلا أنه كان يخفى حبه فى قلبه وكأنه زلة. كان لديه طريقته فى تلوين السخرية من الناس ومن الأشياء من دون شر. فى واقع الأمر، كان يتمتع بحس ساخر قوى يضاعفه حكمته وفصاحته. لاتزال الكثير من أقواله الطيبة تتردد إلى اليوم فى القرية. بشكل عام، هو محبوب بقدر أخيه؛ لأنه بسيط وشريف.

عندما أتيت للحياة، كان عمى على مشارف الخمسين عامًا، أما أبى فكان فى العقد الرابع من عمره، ولكل منهما زوجته وأبناؤه.

نشأت حليمة، زوجة عمى، فى الحى الأعلى، إنها سيدة طويلة، نحيلة ومنتصبة القامة، عيناها تتلألأ، صوتها أجش، يدها رشيقة الحركة وهيئتها تنم عن المكر. فرضت نفسها على تساديت العجوز ولم تتوانَ عن ترويعها. اعتاد عمى ضربها دون أن يستطيع إخافتها. أما أبى فكان عدوها اللدود؛ لأنه أحبط كل حيلها. تعلم العائلة أن لعنة جدتى حالة عليها ولذا نتحمل مرارتها.

على الرغم من ذلك، فقد اختارتها السيدة العجوز. عمل والد حليمة، صديق قديم لجدى، ناقلا للبضائع فى حملة مدغشقر. عاد منها بأموال.

تخيلت جدتى أنه ثرى ورأت فيه سندا لأبنائها. لم تغفر لنفسها قط خطأها. بعد أن اطمأنَّ الجندى العجوز على ابنته، توفى سريعًا ولم يترك لها سوى ميدالية ذهبية بشريط من الحرير الأخضر والتى ستنتهى فيما بعد بين يدى.

ينحدر أصل أمى من عائلة موسى، إنها قريبة لعائلة منراد. زوجتها جدتى لأبى أيضًا لاعتبارات حسابية. قبل وفاته، أورث أحمد - جدى لأمى - لبناته الثلاث منزلاً صغيراً وحقلاً. ترك ورقة موثقة من قاض، لا تزال تلك الوثيقة موجودة حتى الآن، أغمق لونها بعض الشىء، إلا أنها مازالت متماسكة ومطوية ومغلفة بقطعة قماش وقد خُبئت فى إناء من الفخار تسده قطعة فلين. كانت هبة "لا رجوع فيها ونهائية". لكن عندما وصلت الوثيقة، شرح الشيخ الذى قام بترجمتها إلى الوريثات أنهن يتمتعن فقط بحق الاستنفاع. فيما يبدو أن القاضى لم يفهم جيداً أمنية المحتضر فسجل طلب إخواته، لم يعجب كثيراً والدتى وأخواتها أن أعمامهن يتقاسمون الحقول الأخرى، عند وفاة الأخوات الثلاثة، سوف يؤول الميراث مباشرة إلى أعمامهن.

كان جدى أحمد أرمل، ولم يكن يجهل أن بناته لن يجدن سنداً بعد رحيله، غير أنه لم يجرؤ أن يتنازل لهن عن أملاكه فى حياته، كانت هذه الطريقة الوحيدة لتأمينهن من الفقر. خشى ضياع أملاكه إذا ما صارت بين يدى النساء. كما أنه رفض أن تتعرض ذكراه لتجريح أفراد عائلة

موسى في الحاضر وفى المستقبل. ولم يرغب أن يستقر آخرون على أرضه سواء كانوا أزواج بناته أو أحفاده. نعم، كان الوضع يمكن تسويته في حياته، إذا رغب أقاربه من عائلة موسى مثله الزواج من أحد بناته، إلا أنه لم يرد أحد ذلك، ربما فيما عدا أبناء شعبان، عدد قليل جدًا، كثيرًا ما وسوس له أن يكن لهم الضغينة. لكن فى أيامه الأخيرة، وجد أنه من الحكمة أن يترك له أرضه حتى لا يفصل بناته عن العائلة الكبيرة.

فكر كالآتى:

– إنى راحل، لن يستطيع أحد أن يقول إنى أضررت بمصالح عائلتى، تركت لهم الاختيار بين الشرف والعار.

قسمًا! اختارت عائلة موسى الشرف، لم ترغب فى أن تتسبب الفتيات فى عارهم، أولاً، إرادة أبيهم اتضحت؛ حيث إنه حاول أن يترك لهن البيت والحقل "بشكل دائم". لحسن الحظ القاضى كان متفهمًا. فيما يخص الباقى، لم يكن عليهم أن يسلكوا ألف طريق.

– حاولوا أن تحافظوا على شرفكن، أقل انحرافاتكن كفيلة بتلطيخ أسمائنا، وسريعًا ما ستنزل بكن أشد العقوبات. أنتن رهن تقديرنا. ابقين مستقيمات، أما الباقى لا يخصنا فى شيء.

من المعمول به، إذا ورث قريب، فإنه يقوم باستقبال اليتيمات وتزويجهن ورعايتهن. لكن عائلة موسى كبيرة وتمزقها الغيرة حتى إنها

لم تلتزم بتلك القاعدة. رغبوا جميعًا فى الميراث فأخذوا على عاتقهم رعاية اليتيمات، احترموا هذا الالتزام فى إطار الرقابة الصارمة للتعيسات. بالرغم من المراقبة المستمرة والإساءة لهن أحيانًا، شعر الأخوات بالامتنان لاعتقادهن فى الوقت ذاته أنهن يتمتعن بالحماية. علاوة على ذلك، فضلن ذلك على اللامبالاة والهجر اللذين يصاحبان دومًا الازدراء. كن فتيات يتمتعن بالشجاعة ويتمسكن بمبادئهن، لذلك قبلن خداع أعمامهن، وسرقتهم طالما لن يتم عزلهن عن المجتمع وطالما يحافظن على حقهن فى اسم العائلة.

من بين كل العمات، كانت جدتى تساديت أكثرمن يهتم بشأن اليتيمات، كانت أكثر من يُسْمعهن كلامًا معسولاً وغالبًا ما تعطيهن نصائح. سرعان ما صرن تستشرنها فى كل أمورهن.

لم تكن فاطمة، الأخت الكبرى، قد أتمت عامها العشرين، ولم يكن رمضان قد تزوج هو الآخر، واتت جدتى فكرة ارتباطهم. لم تكن فاطمة قبيحة: صغيرة، شاحبة ونحيفة، وجهها طويل بعض الشيء وعظامه بارزة، غير أن عينيها جميلتان يفيض منهما الحزن. لم يكن لديها شيء من الفظاظة والغرور اللذين تجدهما عند الفتيات فى مثل هذه السن. كما أنها كانت بسيطة وساذجة. فيما عدا الكسكسى، لم تكن تعرف إعداد شىء. بذلت جدتى جهوداً مضنية لتقنعها بقبول رمضان، لم توافق فاطمة إلا لما تأكدت أن هذا الرجل الذى يشبه الدب يخفى كثيراً من

القوة، وقادر على العمل الشاق إلى جانب أنه عقلانى. فكرت أيضًا أنه سيكون بمثابة وصى على أختيها. تم الاحتفال بالزواج بطريقة بسيطة للغاية. أخذ الأخوان لونيس ورمضان على عاتقهما حماية اليتيمات، مما أسعد كل أقاربهم.

أعتقد أن جدتى لم تشتك قط من أمى، عاشت فاطمة تحت ظلها وصارت العدو اللدود لحليمة. وجدت تساديت العجوز نفسها أمام مفارقة: أحبت لونيس أكثر من رمضان إلا أنها تفضل فاطمة على حليمة. ربما لهذا السبب استطاعت الأسرتان العيش طويلاً معًا، كما استطاعت جدتى إدارة المنزل بنوع من الحياد النسبى.

بالفعل، نحن نعلم أن سكان القبائل منضبطون على الأقل داخل حياتهم الأسرية. فنحن جميعًا متفقون على نبذ الإسراف، لذا فكل عائلة تترك شأنها بين يدى مسئول. يتحكم المسئول فى المؤن، يقسمها طبقًا لرغبته، يقرر توجيه المدخرات، كما يقرر عمليات البيع والشراء. قد يتهم بعض الوقت بأن نصيبه أكبر من الآخرين، ذلك غالبًا لأننا نحسده. تكرس العادات مزايا سيد أو سيدة المنزل. ينصفهما بعض الأمثال غير القابلة للمناقشة.

فى عائلة منراد، كانت جدتى المسئولة عن المؤن، هى فقط من كانت تتمتع بحق فتح أوانى التخزين وإغلاقها. كانت لديها طريقتها الخاصة فى استعمال الأوانى، كانت لديها أسرارها لوضع أو رفع أغطية

الأوانى، تبقيها يقظة دلائل غير ملموسة. تعرف جيدا زوجات أبنائها ما عليهن توقعه. كانت السندرة منطقة نفوذها، هى فقط من يحق لها دخولها، تصعد إليها لتأخذ حصة التين، أو لتملأ منخلاً من الشعير أو لتحصل على الزيت والسمن، لديها طريق قياسها التى تخضع لحساباتها الخاصة، إلى جانب ذاكرة قوية. كانت شديدة اليقظة حتى إن أحداً لا يستطيع خدعها.

تعد النساء الكسكسى. ما إن يتم طهيه، كانت تقسمه فى الأطباق. أما اللحوم، فكانت تترك تقسيمها لابنها البكر: عمل خاص بالرجال. بما أننا لم نكن نشترى اللحم سوى فى الإجازات، فصارت جدتى من تطعم العائلة، تماماً مثل الدجاجة التى تطعم صغارها فى منقارهم.

بالتأكيد، هذا عمل يحتاج إلى مميزات خاصة، وبخاصة أن سكان القبائل لا ينعمون بحياة رغدة؛ ولأن أكبر فرد فى العائلة أو أكثرهم احتراماً يتولى هذه المهمة، فعادة ما نطمئن على مصير الآخرين، كما أننا على يقين أنه سيؤدى واجبه على أكمل وجه لتحقيق المصالح المشتركة.

(٤)

ولدت فى العام المبارك ١٩١٢، قبل يومين من شهر فبراير، الذى تسبب فى الماضى فى قتل وتيبس سيدة عجوز على قمم جورجورة والذى لا يزال يسبب الهلع للقبائل من فوق الثمانين.

لأننى كنت أول صبى يولد على قيد الحياة، قررت جدتى أن تعطينى اسم فورولو (الاسم مشتق من الفعل أفير ويعنى إخفاء)، مما يعنى أن أحداً لن يرانى - سواء بعين مرضية أم رضية - إلا يوم أستطيع أن أخطو وحدى على قدمى عتبة منزلنا.

ربما يتعجب البعض إذا ما عرفوا أن هذا الاسم - الجديد تماماً علينا - لم يتسبب لى قط فى الإحراج بين الأطفال من عمرى، ذلك أنى كنت هادئاً ولطيفاً. بقدر ما يمكننى الرجوع إلى ذكرياتى، أجد دوماً إلى جوارى صداقة دافئة وصادقة. من أقدم الصور التى تبرز فجأة فى ذاكرتى صورة صبى صغير جالس، فى باحتنا، على إناء مقلوب: تقف أمامه ابنة عمه الصغيرة "شبحا" وهى تحصى على أصابعها الخمسة الصغيرة الأشياء الطيبة التى تود إطعامها له. أتذكر أنى كنت أرتدى

جلباباً أبيض صغيراً بقلنسوة، أمشى بالكاد غير أننى أثرثر كما يحلو لى، ربما كان لدى ثلاث سنوات.

يعد أبى وعمى من بين فقراء الحى، غير أنهما لم ينجبا سوى البنات، لذا كنت أتمتع بسعادة لم يعرفها أصدقائى وسط إخوتهم من الذكور. أمى، أخواتى، خالتى – أى قريباتى حقًا – يعشقوننى، رضخ أبى لكل رغباتى، أما جدتى، قابلة القرية، فكانت تغدق على بأطيب ما تحصل عليه، رغمًا عن حليمة. عمى – الذى يثمن قيمة رجل فى مجلس القرية والذى يرى من خلالى مستقبل العائلة – يحنو على كابن له. بالطبع كل ذلك الحنان أكثر مما تطلبه التربية القويمة لطفل.

لم تؤد كل جهود العائلة إلى النتائج المطلوبة: لأنى الذكر الوحيد، فكان على أن أصير رمز قوة العائلة وشجاعتها.

مستقبل ثقيل بالنسبة لرجل هزيل! غير أنه لم يخطر على بال أحدهم أنى قد أكتسب مميزات أخرى وأنى قد لا أحقق أملهم.

باستطاعتى أن أضرب بلا عقاب أخواتى وأحيانًا بنات عمي، كان على أن أتعلم توجيه بعض الضربات. باستطاعتى أيضًا أن أتحدث بفظاظة إلى كبار العائلة وأحصل فى المقابل على ضحكاتهم ورضاهم. كان فى مقدورى أن أصبح لصا وكاذبًا ووقحًا. هذه الوسيلة الوحيدة لخلق منى ولدًا شجاعًا. لا أحد ينكر أن شدة الأهالى تنتج حتمًا شيطانًا مسكينًا، خائفًا، ضعيفًا، وهشا مثل البنات. وليست هذه المبادئ التى تنقص أبناء جدى شعبان.

تخللنى غرور بأهميتى منذ خمسة أعوام، فأسأت استخدام حقوقى. أصبحت طاغية على الفور بالنسبة لأصغر أخواتى والتى تكبرنى بعامين، لقبتها بتيتى والتصق بها الاسم. لم تكن أطول منى وكانت تشبهنى، بمعنى أنه يمكن تمييزها عن طريق طرحتها وضفيرتها الطويلة. تتمتع بطيبة تجعلها تتقبل ضرباتى وتتقبل استهزائى بوداعة قد تتوفر قليلاً فى طفل من عمرها. غير أنهم لم ينسوا أن يعلموها أن انقيادها واجب وأن تصرفاتى حق. فى كل مرة اشتكت فيها، حصلت على الإجابة ذاتها: "أليس هذا أخاكِ؟ كم أنتِ محظوظة أن لديك أخًا! ليحفظه الله لكِ! توقفى عن البكاء واذهبى لتقبليه!"

هذا الأسلوب جعلها تعتقد أن عبارة "ليحفظه الله لكِ" جزء لا ينفصل من اسمى وكان من المؤثر سماعها تقول لوالدتى وهى تبكى: "أخى، يحفظه الله لى، أكل نصيبى من اللحم، أخى، يحفظه الله لى، مزق طرحتى".

أختى الصغيرة، التى صارت اليوم أما وربة منزل، قد حقق الله لكِ أملكِ وحفظ أخاكِ السيئ.

كنت أمارس طغيانى بشكل مختلف على أختى الكبرى "بايا"، تساعد بايا والدتنا، تعرف كيف تأتى فى صفها وتدافع عنها، تتسم بالذكاء والشجاعة، علاوة على أنها عنيدة. فرضت نفسها بفضل قوتها، كما نجحت فى أن تحظى باحترام الآخرين ومهابتهم. مسئولية بايا هى تحديداً رعايتى والتسرية عنى. لم أكن سهل المراس، وسرعان ما أدركت

أنى أستطيع الحصول على كل ما أريد بالبكاء. أصبحت الدموع والصراخ سلاحى الذى لا يقهر. نجحت تلك الحيلة بطريقة مثيرة بين أفراد عائلتى، إلا أنها تسببت لى فى خيبة أمل كبيرة وكثير من الإزعاج. مهما انخرطت فى البكاء علمتنى بنات عمى، قبل الجميع، أن ليس على الجميع إرضائى. أمهن التى كانت تمقتنى بشدة حددت لهن سلوكهن تجاهى.

– إنه ليس أخاكن! ليس لديكن أخ!

النبرة التى كانت تنطق بها هذا الكلام تعنى دون مجال للخطأ أنى عدو. ما زلت أسمع صوت حليمة، مازلت أرى نظرتها القاسية. شعرت منذ نعومة أظافرى بمقتها لى. جاران صغيران من عمرى أو ربما أكبر قليلاً، لكن فى كل الأحوال أكثر وعيًا، فتحا عينى على حقيقة قدر ما استطاعا.

لذا لجأت مع جيرانى إلى الطريقة الوحيدة التى يمكننى اللجوء إليها: صرت هادئًا ووديعًا وصبورًا، كنت أتملق أكثرهم وقاحةً، كنت أعطى أو أقرض بسهولة ما يطلب منى. رأى والدى، شيئًا فشيئًا، انهيار أحلامهما فى أن يصنعوا منى أسد الحى، ثم فيما بعد أسد القرية.

كنت شديد الحساسية، وفوق ذلك أجبن إذا ما خرجت من شارعنا. لا يزال صديقى عقلى يذكر حتى الآن كتلة من الصوان ناصعة البياض تقع فى آخر الشارع. ما أن تخطيتها حتى أتبع تلقائيا أوامره. يصير

أصدقاؤه أصدقاء لى، أتجنب أعداءه، كنت تابعه المتواضع. دافع عنى طالما استطاع أو كان يقبل بإخلاص مسئوليات الزعيم، فيعرض نفسه للضربات ولا يتركنى أجابه خصماً إلا إذا وجب عليه مجابهة آخر أكثر خطورة. ما إن نعود إلى قواعدنا، أتقدم المسيرة عند العلامة المصيرية. هكذا يصبح مضطراً أن يخضع لأهوائى والله يعلم كم كانت تتسم بالشطط.

إذا صنعنا لعبًا، كان عليه أن يتبع نصائحى والحصول على موافقتى إذا ما انتهى العمل. كثيراً ما دمرت بحركة وحشية نتاج صنعه، فكان يمصمص أصابعه التى خدشها العمل، إضافة إلى ذلك، كان يقبل بسعة صدر تستحق الثناء قرارى دون اعتراض.

مرتبكًا، شعر أنى أملك مخيلة أكثر خصوبة*وذوقًا أعلى. أما أنا، اضطررت أن أتقبل أنه يحظى فى الخارج باحترام أكثر منى. كنا نكمل بعضنا عن طيب خاطر. دخلنا معًا إلى العالم. أولاً، فى مجلس المدينة، ثم فى المجالس الأخرى، وأخيراً فى المدرسة.

متى وفى أى ظروف ولدت صداقتنا؟ لن أستطيع أن أقول. فى ذاكرتى، دائمًا ما يرافق عقلى فورولو الصغير البالغ من العمر خمسة أو ستة أعوام. نحن نسكن الشارع نفسه، لا أننا تقابلنا هنا. على الرغم من ذلك، لا شىء يوضح سر ارتباطنا. كان هناك أطفال آخرون، غير أنهم لم يكونوا صداقة مثل صداقتنا.

عقلى جميل مثل الفتيات وشقى مثل الشيطان. لم يكن بمثل وداعتى أو هدوئى. يعشق الضحك، والممازحة والضرب. كما لم يكن يخشى الكبار الذين يغفرون لؤمه بفضل عينيه الجميلتين وبشرته البيضاء وملامحه الرقيقة المنتظمة. أما أنا، كان لدى ما يكفى من خجل لفردين. وهو ما جعلنى أقدر مثل ما كان مقدراً لجرأته. قبضتا يديه وقدماه تتسمان بالضخامة، غير أنه أكد لى أن هذا ضرورى للعراك أو للهرب. أعجبت بعقلى وأحببته؛ لأنه كان يتمتع بكل ما ينقصنى. أعتقد أنه ارتبط بى للأسباب نفسها.

لا أذكر كم احتجنا من الوقت لاستكشاف الحى، لمعرفة كل الأطفال وليعرفونا. فى كل الأحوال، تخطينا هذا الاختبار بنجاح. هناك صبية يمكن لأى شخص أن يضربهم - صبية صالحة السُّخرة والاستغلال - وهناك صبية نستطيع السخرية منهم، وآخرون يكفى مناداتهم بكُنية حتى يفسحوا المجال ويختفوا. لم يحدث لنا تلك المضايقات، بل استطعنا أن نفرض مزايانا: هو شجاعته وأنا ذوقى وحيويتى.

سريعاً، ما عدت أخشى الخروج وحدى والذهاب إلى المجلس حتى إن ذهبت قرب المقهى الذى يتردد عليه الفاسدون الباحثون عن أعقاب السجائر، عندما تطلب منى ابنة عمى أن ألعب معها، كنت أجيبها - ليس بعدم اكتراث - أن هناك مشاغل أكثر أهمية وذكورية تنتظرنى خارج المنزل، كانت تنحنى رأسها، وقد روضت، ثم لا تصر.

من عجائب القدر، فى الأيام التى أسخر منها يصادفنى شخص يهددنى أو يستفزنى أو يمنعنى من دخول المجلس، حتى إنى كنت أعود سريعًا إلى المنزل أبكر مما كنت أتوقع. كنت أقبل متواضعًا اللعب مع شبحا وباقى الفتيات. أحرص على عدم ذكر سبب عودتى، وأعمل على نسيان جبنى أو على الأقل على عدم تذكر الضربات التى تلقيتها للتو.

لم أفكر قط بالاستقواء بأهلى إذا كان خصمى من نفس عمرى؛ إما أن أقبل المعركة، وإما أن أهرب إذا انتابنى الخوف. أخفى بمهارة الهزائم والانسحاب، لم أتحدث سوى عن انتصاراتى. من المؤكد أنه فيما عدا أمى لن يقبل أبى أو عمى أو أفراد أسرتى بتقديم العون. على النقيض، كانوا سيتعجبون من تقهقرى، ثم لكانوا أجبرونى على مجابهة خصمى، مثل هذه الأشياء حدثت لى بالأخص مع عمى. عندما تكلل المعارك العنيفة بنصرى، الجميع يهنئوننى. وإذا خسرت، أصبح محط سخريتهم.

فى مثل هذه الأوقات، لم يكن يرغب أحد فى تدليلى. أقرأ الازدراء على جميع الوجوه، باستثناء أمى التى تطالعنى بوجه حنون وحزين. فى حقيقة الأمر لم تكن أمى تريد سوى أن تحبنى مهما حدث.

ظللت طويلاً أشعر بنوع من المهابة والإجلال من منطق عمى الذى لا يعرف الرحمة. لم يكن ليلين قط. طبقًا له، هناك ثلاث حالات إذا كان خصمى أصغر، فى مثل عمرى، أو أكبر منى.

إذا كان خصمى أصغر، يسمح لى بمعاقبته على شرط أن أختفى أو أهرب فى الحال. إذا جاءت أسرة لخصم لتشتكى، يبحث عمى عنى، يتجنب إيجادى، يواسى الطفل ويعد أهله بمعاقبتى.

إذا كان الخصم من نفس عمرى، لم يكن لدى أية أسباب لأخشاه. غضباً، يردد عمى أن لدى مزايا من شأنها معونتى؛ يتم إطعامى أفضل من الخصم وبالتالى، كنت أكثر قوة، أو حتى أبوه لم يتعارك قط، وهكذا ابن الجبان يجب أن يكون جباناً، أو أنه "ابن أرملة" مما يعنى غير شجاع، أو أخيراً أنه من معسكر الأعداء، والانسحاب غير مقبول بتاتًا أمام العدو.

أعترف داخليا بقوة تلك الحجج وأحاول أن أستجمع شجاعتى.

على النقيض، لم يقبل قط أن يضربنى أو يسخر منى صبى يكبرنى. مما كان يسمح لى بالثأر من عمى. فى مثل هذه المواقف، أوافيه بجميع التفاصيل. سرق منى صبى كبير بلية، أعود إلى المنزل، باكيًا بلا توقف، ينهض لونيس، يبحث عن خصمى، يصرخ، ينهره ويعطى بعض الصفعات، فى حين لا أفارقه قيد أنملة وأنا أبكى بلا توقف. ياله من عم شهم! كان طفلاً أكثر منى. كم من السخافات جعلته ينهض ويجرى من أجلها! سامحنى بالتأكيد فى ليل غفوته الأخيرة.

(٥)

كان جليا، أن لا عيب فى رغبة عمى فى تنشئتى نشأة ذكورية، غير أنه يتحمس أكثر من اللازم، لم أستفد قط من دروسه. أكد لى نظرتى للحياة أحد براهينه الأكثر دراما، كما جعلنى منذ الصغر أقدر قيمة الهدوء.

كان ذلك ذات صباح، فى موسم التين، جمع الفلاحون أول مقطف من أوراق شجر الدردار لإطعام بهائمهم، ثم ذهبوا ليأخذوا قسطًا من الراحة على الألواح العريضة لساحة الموسيقيين. أعرف جميع الرجال، هناك على المقعد المغطى، يجلس بوساد نامر يصنع سلة من أغصان الزيتون، جلست إلى جواره، يجذب انتباهى، كما أعلم أنه يحتمل الأطفال، لا يخيفنى وجهه الأسود، على الرغم من التجاعيد، وعيونه البراقة، رأسه عارية بسبب الحر، جمجمته البارزة والتى لا يكسوها سوى شعر قليل تشبه البطيخ، ترى صدره المشعر من فتحة جلبابه، وضع فى شاشيته(٤)

(٤) الشاشية: هى قطعة قماش من الشاش تستخدم كغطاء للرأس (المترجمة).

المخلوعة علبة النشوء الخاص به والمصنوعة من العاج، تحتل غصون الزيتون لوح الرخام. يضع بين رجليه المصبوغتين السلة حيث يعتمد عليهما ليتحكم فى العمل. يشذب الأغصان ويضفرها فى ذات الوقت.

تابعته بتركيز، غير أنى كنت شديد القرب منه، لامست الأغصان وجهى خلال جدلها.

- ارجع للخلف يا ابن رمضان، المقعد كبير.

- لا، أريد التعلم.

- اذهب للهو مع من هم من عمرك، أنت تجذب الذباب على وجهك وعينك.

- لدى مكانى فى المجلس مثل الآخرين تماماً.

- حسناً، احترس حتى لا ألمسك.

كل صغار القرية يتعلمون منذ نعومة أظافرهم أن لهم مكاناً فى المجلس، أى فسل من الذكور يحفظ مكانه مثل الآخرين. علاوة على ذلك، لا نتردد أبداً فى تذكير الكبار بذلك بنوع من الوقاحة وبطريقة غير ملائمة. تحملنى بوساد، صمت وأكمل عمله.

تتداخل برفق أغصان الزيتون وأحياناً تنكسر، فى هذه الحالة، يمسك بسكين كبير حاد جداً ليعيد تشذيب الطرف الذى انكسر. لا أعرف كيف حدث ذلك: شعرت فجأة بدفء لطيف فى حاجبى،

تبعه فى التو ألم حاد مثل لدغة دبور. لامست شفرة سكينه جبهتى، رفعت يدى سريعًا إليها، فإذا بى أجدها ملوثة بالدم. صرخت، نهض الرجال وتجمعوا من حولى. كالممسوس، تخبطت بين يدى العجوز الذى أمسكنى ووضع على جبينى آخر ما تبقى فى علبة نشوءه. مزق آخر جلبابه الرث ليصنع لى ضمادة بقطعة من القماش القديم. غير أن نزيف الدم لم يتوقف، واصلت الصراخ. صار بوساد شاحبًا. سكينه ملقى بين أغصان فى حالة من الفوضى وسلة لم تكتمل. كان قلقلاً وسأل – وهو يلهث – إذا كان جرحى غائرًا.

– كان من الممكن أن تثقب عينه!

– ألم أحذره؟ كان شديد القرب، هذه مشيئة الله، ليس بيدى شىء.

– كان من الممكن أن تنتبه، من المؤسف ما حدث، يبقى أن نعلم كيف سيستقبله أهله، اذهب يا منراد إلى منزلك، فلتذهب! قل لأمك أن تضع رماد قماش محروق على جرحك.

اتجهت إلى منزلى وقد غطت وجهى الدماء، اقتنعت أنى نجوت من محاولة قتل خاصة أن الشهود لم يقتنعوا برواية بوساد المسكين والذى أقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يجرحنى عن عمد، وأنه يحبنى تمامًا مثل أبنائه. مهما أقسم، هز الجميع رؤوسهم مشفقين على حالى. بالتأكيد، لا أحد يستطيع الشك فى مصداقيتهم أو حتى اتهامهم بمحاولة صريحة لتأزيم الموقف.

أول من قابلت على عتبة المنزل هو الشخص الذى وجب على العناية الإلهية أن تبعده فى مثل هذه اللحظة بالتحديد: عمى الذى استمع إلى صراخى. تخشبت أمى. رأوا وجهى الملوث بالدم والضمادة الداكنة والمبللة.

قال عمى: من فعل بك ذلك؟

قالت أمى وقد أطلقت صرخة استغاثة: "قتل ابنى"!

جاوبته بأفضل ما عندى. متعجلاً قال عمى:

- قل سريعًا! من؟ لماذا؟

- إنه بوساد نامر

- عن قصد؟

- نعم أراد قتلى.

كان ذلك كافيًا، اندفع عمى مثل البرق. لوهلة تخيل المشهد: بوساد نامر، وهو ينتمى لعشيرة معادية، مسلحًا بالسكين وقد انقض على ابن أخيه، الذى لا يملك طريقة دفاع. أراد قتل الطفل، وقطع نسل عائلة منراد. جرى عمى، وانطلق إلى المجلس مسلحًا بهراوة. قلبه ينفث غضبًا كظيمًا يصعد إلى عقله. سيغسل شرفه، سيعلم الناس أجمعين احترام أسرته.

انطلقت أمى خلفه ومن ورائها باقى العائلة، إنه سباق يتسم بالاضطراب. قبل أن نصل إلى المجلس، وصل إلينا الصخب، لا أفكر فى جرحى؛ أرتجف مثل ورقة الشجر. تعج الساحة بالبشر تمامًا مثل يوم الحشر. أصبحت وحدى فى المعركة. أين أمى؟ أين عمى؟ لاحظت عند أحد مخارج المجلس مجموعة من الرجال تتصارع، رأيت بوضوح أحد أبناء عموم بوساد وقد ألقى حجراً سقط وأحدث جلجلة. ثم سمعت صرخة قوية سادت وسط الضجيج. انطلق أحد أبناء عمومتنا وسط الجموع ممسكًا بهراوة، رفع شخصًا من الأرض: إنه عمى.

على بعد عشرة أمتار، فى حارة سد، تدور المعركة النسائية، بضجيج وبشاعة مماثلة. تشل النساء أيضًا كتلة ملتحمة صاخبة وملونة حيث يسود الأسود لون الشعور ، والأحمر لون الطرح.

يمتلئ المجلس شيئًا فشيئًا بالمتفرجين والمتصارعين. كل المتفرجين مشتركون بشكل أو بآخر، تستيقظ العداوات القديمة، يتم تصفية حسابات قديمة كانت تنتظر حجة. ها قد وصل أمين القرية، صعد على أحد الألواح. بجواره، قام المربوط برفع علم من الحرير الأصفر وقال بصوت قوى وأجش:

– لتحل اللعنة على كل من سيضيف كلمة أو حركة.

انفصل الرجال، تبادلت سرقة النساء بعض الضربات. يكاد قلبى يتمزق من شدة دقته. جف حلقى وشفتى. لا أستطيع البكاء أو حتى الهرب.

رأيت أمى، شعرها يطير فى الهواء وتبحث عن طرحتها. ذهبت إليها، وجدتنى، لم تبحث عن شىء آخر، ضغطت على يدى بقوة وتركت الساحة. أذن أمى ممزقة، جدتى تمسك ببعض الشعر، أخذت بايا طرحة عينى، زوجة بوساد كغنيمة. لا تزال النساء ساخنة وترغب فى الشجار مرة أخرى.

أذهلونى بسيل الشتائم التى نعتوا بها أعداء هم، والذين صاروا بعيداً والذين على الأرجح يسبونهم بالمثل.

ما إن وصلنا إلى المنزل حتى عاد أهالى الحى يحملون عمى وقد فقد وعيه. ألقى على رأسه حجر ضخم وضرب بالسكين فى خصره. كان من نصيب ابن عمنا قاصى عدة ضربات هراوة. أما عن العشيرة المعادية، فحصلت على نصيبها هى الأخرى كما يليق بها: تم نقل بوساد إلى منزله فاقداً الوعى على إثر عراكه مع عمى. فقد أخوه نصف أسنانه، وأصاب الآخرين: عيون منتفخة، وجوه مجروحة، وظهور متألمة.

أحصى أحد أقاربنا قائمة الضحايا، بينما رقد عمى على البورية(٥). يحمل الجميع علامات المعركة: خدوش طويلة تسيل منها قطرات الدم، جلاليب ممزقة، ضمادات على الأكتاف.

قدمت أمى إناء من الطين النى ممتلئا بالماء لغسل الجرحى.

---

(٥) حصير مشوج من القصب.

قال أحدهم:

- لا يجب غسلهم، يجب تركهم كما هم، لابد أن يراهم الأتراك.

صرخ عمى:

- ابتعد!

أضاف قاصى:

- سنركبك على حمار وسنذهب على الفور للقاضى.

قال آخر:

- نعم، سيفعل الآخرون بالمثل، لابد أن نسبقهم.

أدلى الجميع بدلوهم، غير أن الحديث صبغوه بالتردد والقلق. الكل يخشى توابع هذه القصة، جميع الإجراءات المقترحة غير مرضية، لذا اتفقوا على العودة - جميعًا - فى المساء لإعداد خطة دفاع عائلة موسى ضد عائلة عامر. انسحب الجميع فيما عدا ابن عمنا رباح، شاب قوى البنية جلس قرب السندرة بناء على إشارة من عمى.

فى العائلة، يبدو أن الجميع قد نسى أنى السبب الرئيسى فى هذه الكارثة، إلا أن حليمة وبناتها تعمدن تذكيراً بذلك دون رحمة. أبدت حليمة استياء ها، كما كانت أقلهن حماسة فى المعركة. أشاحت نظرها بإصرار عن زوجها، وبين حين وآخر رمقتنى بغضب شديد. مرت ابنة عمى جواهر وقرصتنى بعنف.

- انظر إلى عمك! أيعجبك شكله؟ أنت السبب فى كل ذلك.

آلمتنى حقًا، غير أنى لم أنطق بكلمة، كتمت البكاء فى حلقى. يأسًا، اتجهت بنظرى إلى أمى. رأت كل شىء ولكنها عاجزة عن فعل شىء، فاكتفت بالنظر إلى أسفل. تخلت عنى. فجأة، نهض عمى من رقدته، رأى كل شىء هو الآخر. قال لزوجته:

- انصرفى ومعكِ بناتكِ.

خرجت حليمة متذمرة.

أكمل عمى:

- اقترب يا فوررولو، هل تشعر بألم؟

أمسك يدى ثم جذبنى إلى جواره، لم أعد أحتمل، فاضت عينى بالدموع، اهتز صدرى، بكيت، نعم بكيت بلا توقف.

حملتنى أمى على ظهرها وخرجت بدورها. تركته مع جدتى ورباح. بينما تضع جدتى عجينة سوداء من صنعها على جروحه، أعطى عمى لرباح بعض التوصيات السرية: أبى غائب عن المنزل.

كان قد رحل باكرًا إلى تيزى - أوزو محملاً العنب على حماره، ولن يعود قبل حلول الليل، لم ير شيئًا من المعركة وتعلم عائلة عامر ذلك تمام المعرفة. هم قادرون على أن ينصبوا له كمينًا، بخاصة أننا تغلبنا عليهم فى الصباح. تفخر عشيرتنا بأنها منتصرة، لقد قررت ذلك بالإجماع.

قد يكون خصومنا مقتنعين بالعكس تماماً، وقد يكونون مجتمعين أعلنوا نصرهم. ونحن لا نشك في ذلك، لذا أبقى عمى رباحًا. أمره بأن يتزود بالأسلحة، بأن يذهب لملاقاة أبى، بتحذير بعض الأقارب المهتمين بالأمر ليلاقوه خارج القرية، فى المكان الذى قد يأتى إليه الأعداء.

لما وصل أبى سالمًا إلى المنزل، أيقنا بفرحة يشوبها بعض الغيظ أن كل هذه الاستعدادات غير ضرورية. من حسن الحظ! بتواضع، ظنت عائلة عامر أنها هزمت عائلتنا وبقيت حذرة فى بيوتها.

عند رؤية الضمادات الداكنة والدم المتخثر، نفث أبى غضبًا كظيماً. أقسم بأغلظ الأيمان أنه إذا كان اشترك فى "الحفل" الصباحى، لكان قد انتقم. رفع هراوة، وخنجراً ومسدساً قديماً فى اتجاه المجلس، أراد أن ينطلق إلى الخارج، غير أن جدتى، وحليمة وبناتها، أمسكن بجلبابه، وبكتفيه وبذراعيه. عن طيب خاطر، أمسكت أمى بقدميه وقبلتهم. نظر إليه عمى بهدوء. فيما يخصنى، أشعرنى صوته الرخيم ببعض السعادة. شعرت بالأمان خلف هذا الغضب. دخل الجيران إلينا، ونجحوا فى تهدئته، أحدهما كان قادماً من طرف الأمين، طلب منا انتظاره واستقباله هو وبعض السادة ومربوطين.

بتوجيهات من جدتى، بدأت على الفور النساء فى إعداد صحن كسكسى كبير. أخرجت، بكل فخر، العجوز من القفة التى حملت العنب إلى المدينة قطعة لحم اشتراه أبى.

متحدثة عن أعدائنا، قالت:

– سنرى إذا كان هؤلاء الجبناء والبخلاء سيستقبلون هذا الجمع العظيم بلحم طازج مثلنا.

قالت أمي:

– سيقدمون لهم الحمص.

– بالتأكيد! نحن فقراء، لكن نحمد الله، طوال حياتي، لم يخجل قط أزواجكم عند استقبال ضيف. تلك سمات العائلات الجيدة.

بالطبع، إذا لم يكن أبي قد أحضر، بمحض الصدفة، اللحم، لما احتارت جدتي في خلق حجج أخرى ولن تخجل في استقبالهم، هي الأخرى، ببعض الحمص أو الفول.

في وقت متأخر من الليل، فتح قاصي البوابة القديمة محدثًا صريرًا سبقه سعال. يتقدم السادة ببضع دقائق. لم يعد مجلس العائلة الذي أراد عقده ضروريا، توصل إلى اتفاق، شعر بانفراجة، سيكتفي بدعوة بعض المسنين من الحي المعروف عنهم الفصاحة، وافق أبي على ذلك. خرج. أغلقت أمي، وزوجة عمي وبناتها على أنفسهن الحجرات الصغيرة، المواجهة للمنزل الكبير الذي سيجتمع فيه الرجال. فقط جدتي، بقيت إلى جوار الموقد وتلمح أنها لن تمتنع بأن تقول كلماتها.

سرعان ما وصل الأمين خلفه المربوطون وبعض السادة. عبروا الباحة الصغيرة واحدا خلف الآخر بخطى هادئة، مرتدين عباءتهم، تظهر عليهم مظاهر الجدية والهيبة.

رحب أبى بقدومهم وقبل رأس الشيوخ على قلنسوتهم المدببة. جلس عمى فى ركن متكئًا على الوسائد. ترك الرجال أحذيتهم عند الباب، وتمجلسوا على شكل دائرة على سجادتنا الحمراء. وقف أبى متكئًا على أحد أعمدة السندرة، تظهر عليه علامات الارتباك.

بعد أن تلا الصيغة المعتادة التى تسبق كل خطاب، بدأ الأمين فى الحديث، غير أن أبى قاطعه:

- نحن نرحب بكم، الليالى طويلة، لنبدأ بالطعام أولاً.

تقدم السادة ببعض التحفظات الشكلية، يعلمون أنهم سيأكلون فى البداية أو النهاية، سيأكلون مرتين؛ لأنهم سيذهبون فيما بعد لخصومنا. بعد كل شيء، ظنوا أن رمضان على حق فى أن يبدؤوا بالكسكسى، مما سيعطيهم فرصةً لهضم وجبة قبل أن يأخذوا وجبة أخرى. من جانبه، قام أبى بتقييم الموقف، يعلم أنك إذا أطعمت أحدًا الخبز والملح، فيصعب عليه خيانتك. حتى تحل علينا البركة، أعطى كل مربوط خمسة وعشرين فرنكًا. كل المنتجات التى كانت فى القفة تم استهلاكها. لا يهم مادام الجميع يشعر بالرضا. لقد تم استقبال الشيوخ بحفاوة وقدم لهم كسكسى جيد، ولحم جيد. بعد الحديث سيتم تقديم قهوة طازجة.

يمكن الآن أن نضع على ألسنتهم كل ما نريد. المشكلة ليست معقدة، كل ما علينا هو التوصل لاتفاق مع أشخاص يشعرون بالرضاء التام.

فى حقيقة الأمر لا تريد أى من العائلتين تعقيد الأمور، غير أن كل عائلة تريد لأجل شرفها أن تثبت أنه يصعب التعامل معها. فى هذه الظروف، يتخذ الشيوخ مظهراً حاداً وجاداً من شأنه إثارة الدهشة والعجب فى نفوس المعنيين.

- فكروا قليلاً، ألا تشعر عائلة منراد ببعض الزهو؛ لأنها جذبت انتباه كل هؤلاء الشيوخ ذوى اللحى البيضاء وأحضرتهم إلى بيتها لفض نزا ع، لنأمل أن ينجح أصحاب اللحى.

فى الأساس، لا أحد ينخدع، فالناس المعتادة على هذا النوع من الترتيبات، تعرف أنها تترجم غالباً إلى وجبتين دسمتين وبقشيش يختلف طبقًا لأهمية الشيوخ.

بعد أن أكلوا وشربوا عن آخر زادهم، قرروا تلاوة الفاتحة: فاتحة للأحياء وأخرى للأموات، فاتحة لله، وأخرى للحصاد واختتموا بفاتحة لأجل العائلة. قرأت جدتى الفاتحة الأخيرة بورع وهى تهمهم الكلمات بنشوة بالغة.

محافظًا على الشكليات، استمع الأمين إلى القصة من عمى. حدث كالآتى: "عاد فوررولو غالى المنزل وهو نصف ميت. ذهبت إلى بوساد لأستفسر منه عن الأمر، أجابنى بطريقة غير لائقة. تعاركنا.

حيهم قريب من المجلس، خرجت كل عائلة عامر، حصلت على ضربة سكين، وصلت عائلتى، امتزج الجميع، ثم وصلتم جميعًا".

سرد واضح ودقيق، علاوة على ذلك الجميع على معرفة بأدق التفاصيل. أول من بدأ الحديث، أعطانا الحق فيما فعلنا، وعلى الأرجح سيفعل المثل فيما بعد مع خصومنا. من تلاه، لم يقل شيئًا مختلفًا، لم يقدم شيئًا مختلفًا إلا فيما يخص الأقواس التى يفتحونها، المقارنات التى يستخدمونها ووسائل تقريب وجهات النظر كما يوحى لهم الموقف. تحدث الشيوخ! أخرج أحدهم كتابًا قديمًا باللغة العربية لونه أسود ومغلف فى منديل. قرأ شيئًا غير مفهوم، ودعا أن تحل علينا البركة، ثم بلا تمهيد، دعا أن ينصب علينا غضب السماء إذا لم نهدأ. ارتعشت جدتى لوهلة، ثم قبلت بشفتيها خجولة الكتاب المقدس. طُلب من عمى أن يضع يده على الكتاب القديم ويحلف بألا يعمل على إثارة القلاقل مرة أخرى. سيحصلون على القسم نفسه من الطرف الآخر. ليس من المفيد اللجوء إلى العدالة الفرنسية التى ستعمل على تعقيد كل شىء. ما إن سالت الدماء يريد القاضى معرفة ما حدث. أخذ الأمين على عاتقه تهدئة القاضى مقابل مائة فرنك، أعطاهم من جيبه حتى تسدد عائلتنا وعائلة عامر هذا المبلغ.

شرحوا لنا كل ذلك، احتفظ عمى بصمت رصين ويبدو أنه غارق فى أفكاره، أما أبى فهو مقتنع. فيما يخص علاقتنا المستقبلية مع أعداء الصباح، لا أحد يعبأ بها، المهم ألا نتعارك.

يذهب السادة إلى عائلة عامر "لتهدئتهم" مثلما قاموا "بتهدئتنا". في الصباح سنستيقظ لنصبح أعداء رسميًا. لقد دفعنا غاليًا لأجل ذلك.

من الآن فصاعدًا، لن نتبادل أطراف الحديث ولن نتبادل الخدمات، لن يخشى بوساد أن يراني أمامه طويلاً؛ لأخذ دروس مجانية في تصنيع سلال على طريقة سكان القبائل.

(٦)

تسكن خالاتى فى الشارع نفسه مع والدى، تركهن جدى أحمد فى منزل صغير بلا إسطبل وبلا سندرة. فى ركن من المنزل، يتربع على العرش إناء ضخم مفتوح، لم تنجح قط خالتى فى ملئه. السقف منخفض، الباب ليس لديه سوى ضلفة الباب، عرض الساحة لا يتخطى حجم الرجل، وطولها لا يتعدى حجم الواجهة. تشعر فيه بالضيق تمامًا مثل طائر المُليك فى عشه المستدير والمظلم. غير أن شعوراً لطيفًا بالدفء والألفة ينبعث منه. تشعرك الحوائط التى تلامسك فى كل حركة أنها تحتضنك، أما الأشياء فتبتسم لك فى الظلمة. لا لم يكن بها شىء حزين، سجن طفولتى العزيز، الأوقات التى أمضيتها هناك كانت قصيرة للغاية.

لم أعرف أسماء خالاتى، إلا بعدما تعرفت عليهن جيداً، لا تعنى الأسماء شيئًا، تمامًا مثل أهلى، أتذكر أنى علمت باندهاش وسعادة من إحدى بنات عمى أن أباها يدعى لونيس، وأبى رمضان، وأمى فاطمة وأمها حليمة. مع ذلك، علمت فى الحال أن الآخرين يلقبونهم هكذا وأن فى العائلة لدينا كلمات أكثر رقة خاصة بنا فقط. بالنسبة لى، خالاتى يدعين خالتى ونانا.

خالتى كانت أكبرهن، تبدو لى ضخمة، أضخم من أمى التى كانت تشبهها قليلاً، وجهها طويل وعظمى، مع وجنتين اكتسبتا الحمرة، وكأنها عنزة متقلبة المزاج، يزيدها جمالاً عينان سوداوان ونجلاوان، علاوة على شعر كثيف يصعب عليها إبقاؤه تحت طرحتها وغالبًا ما ينسدل على كتفيها على شكل ضفائر غير مرتبة. كانت فظة وفخورة بقدر ما كانت والدتى متواضعة ومنقادة.

أعطيت الأخرى الاسم الرقيق "نانا". كانت تبلغ من العمر العشرين عندما كنت فى السادسة. كما كانت فى عمر ابنة عمى جواهر نفسه، علاوة على الطول نفسه. على الرغم من ذلك، أصرت أختاها أن تقولا إنها الأجمل، على أية حال، كانت بالتأكيد أكثر رقة. كانت محبوبة من جميع نساء الحى اللائى يلقبونها "محبوبتنا يمينا". دللها أبوها، ولعن أختاها دور أمها. اعتادت أن تطاع، حتى إنه جاء وقت لم تستطع أختاها أن تأخذا قراراً دون الرجوع لها. فاطمة، وهى ربة منزل، تتلقى تعليماتها، خالتى لا تناقش أوامرها بتاتًا. لما أفكر فى الأمر، أجد أن خالتى وأمى فعلاً الصواب بالانصياع إلى أوامرها، أمى التى تكالبت عليها الأحزان والمتاعب منذ وفاة جدتى، ثم جدى، صارت كائنًا مسكينًا، ورعًا، غير قادر على أخذ قرار أو موقف: ما إن تصدر بخجل بعض الاعتراضات توصلت إليها من خلال رؤيتها الصائبة أو خبرتها الحياتية، تنحنى ولا تعارض أبداً من تحب. أما خالتى، فلم يكن معروف عنها رجاحة العقل، بالفعل، فهى أكثر اندفاعًا من عمى لونيس، غير أنه على

الأقل يتعقل الأمور، غالبًا ما تخرج خالتى عن الحس السليم. كانت غير قادرة على التحكم فى ذاتها. عندما تتعامل مع أشخاص من هذه النوعية، تصبح علاقات حسن الجوار غير مستقرة. بسبب خالتى، كانت بنات أحمد أكثر من مرة على وشك خسارة معزة ابنى عمومتهن. لا تنصلح الأمور بدموع أمى المزيفة ولا صمت أبى القاتل ولا حتى مساندة عمى، الذى كان يدافع دائمًا عن خالتى. من حسن الحظ، يمينا كانت هنا! بفضل رقتها، يغفر قاصى لخالتى أنها أهانت زوجته، وعرب أنها سبته، حتى زوجة عمار، أحد أقاربنا، تغافلت عن محاولة الإثارة. كانت نانا بشوشة حقًا، نبرة صوتها من شأنها تهدئة الجيران.

- أيها الأقارب، لا تستمعوا إلى خالتى، إنها مجنونتنا، إنها مجنونتكم، تحملوها، لومونى أنا على أى شىء، على فاطمة أيضًا، أما هى فاتركوها تهذى، ستعترف بخطئها خلال دقيقة!

بالفعل، تندم دائمًا خالتى على سرعة غضبها، تشعر بخزى، تبكى ثم تحاول إصلاح الأمور، كانت دومًا ما تنجح؛ لأن طريقتها فريدة من نوعها. فكانت تمهد بشتى الطرق للصلح، تدين نفسها بقوة، تظهر محبتها بنفس الطريقة التى سحبتها بالأمس، متحيرًا، يتساءل خصمها إذا ما كان يتعامل حقًا مع مجنونة. فى معظم الأحوال، كانت تأثرهم بطريقتها، فكانوا يغفرون لها موقنين أنهم سيغفرون مرات أخرى. هكذا تصلح وتدمر خالتى طوال الوقت علاقتها بالآخرين. المحصلة: طريقة خالتى أضرتها كثيرًا. لدينا مصطلح لطيف نطلقه على هذه الأشخاص:

مصطلح بين مجنون وساذج، دون الانتقاص من قدر الشخص. يحصل على هذا اللقب كل من لا يعرفون إخفاء مشاعرهم ويتمتعون بحساسية مفرطة، يقسون على أنفسهم، ويخشون مضايقة الآخرين، ينسون مصالحهم، ويتسببون فى إيذاء الآخرين بسبب خوفهم من ذلك. بعبارة أخرى، عندما قيمهم أصحاب العقول الراجحة يقولون عنهم: " إنهم أطفال!" كانت خالتى طفلة وظلت هكذا حتى وفاتها. لذا لم نبال بما تقول أو بما تريد فعله. تطيع دائمًا أوامر نانا بمزاج سيئ كطفل غضوب. وكالطفل أيضًا، تعتمد على حدسها، أحيانًا، نظنها تتمتع بحاسة إضافية تسمح لها بتخمين دون أدنى خطأ نوايا الآخرين تجاهها أو تجاه من تحبهم: نظرة، حركة، كلمة تكفى لتحذيرها، غير أنه لم يخطر ببالها أن تستغل هذه الميزة وتفرض من خلالها بعض النفوذ. على العكس تحتفظ لنفسها بانطباعاتها، لم تستطع شرحهم ولذا أصبح من غير المفيد إشراكهم. كثيرًا أيضًا، ما لم تستطع أن تكبح فيضًا من المشاعر، فتغمرك بحبها، باستيائها، بحنانها وبكرهها. ثم يعود كل شىء لطبيعته.

تتماشى خالتى وخصالها جيدًا مع فورولو الصغير. كنا متفاهمين للغاية، كنت أحب نانا التى غمرتنى بحنانها، فكانت تداعبنى، تقبلنى بلا توقف، تغدق على بالهدايا وتطيعنى، أما خالتى فكانت ترى علاقتنا بشكل آخر، كنت بالنسبة لها شخصًا بمثابة أى شخص آخر، علاقتنا علاقة ندية. تتظاهر بأنها تتناقش معى، تعطينى الحق، تتشاجر إذا ما استدعى الموقف، تتماشى مع رأى إذا تراءى لها أنه صائب.

تلك الطريقة تعجبنى. نتشاجر ونأخذ مثل هذا الهراء على محمل جد، فصرنا أصدقاء. أختى بايا هى من أدخلنى عند خالاتى، عندما كنت فى الثانية أو الثالثة من عمرى، كانت تحملنى على ظهرها إلى هناك لتسرى عنى، بينما تهتم أمى بشؤون المنزل. فيما بعد، عندما خطت قدماى الأرض، أصبحت أذهب إلى هناك بالسليقة، وكأنه الملاذ الوحيد الآمن الموجود خارج منزلنا. من جانبها اعتادت بايا منذ صغرها أن تعيش مع خالاتى. سرعان ما شكلنا عائلة على هامش العائلة الكبيرة، شكلنا دائرة مغلقة تتسم بالأنانية، نحفظ فيها أسرارنا الصغيرة، أحلامنا الساذجة، ألعابنا الطفولية، شجارنا الذى ينتهى فى جو من الحنان.

تصنع خالاتى الفخار والصوف. تمتلئ دوماً باحة منزلهن بأوانٍ من الفخار، هناك فى الزاوية، بالقرب من البوابة كومة كبيرة من الخشب ستستخدم فى التسوية. يبدأ عمل الأوانى الفخارية منذ الربيع. تذهب بايا وخالتى لشراء الصلصال فى سلال على بعد عدة كيلومترات من القرية. يجف الصلصال فى الباحة، قبل أن يتم سحقه وتحويله إلى غبار.

بهذا الغبار المبلل بالماء، تصنع خالاتى عجيناً تضعه فى أوانٍ كبيرة. يتماسك العجين فى خلال يومين، يجب بعد ذلك عجنها بقوة وخلطها ببقايا إناء مطحون. تشكل قطع الطين المحروق مع الصلصال الطازج عجيناً متماسك القوام. جاء وقت تشكيلها.

خالتى، رافعة جلبابها حتى الركب، أذرعها عارية، رافعة طرحتها، تضع عبوة كبيرة من العجين على لوح، تشكل سريعًا قعر الأباريق

وقدرًا وصحنًا. إنه دائمًا عجين شكله دائرى. تركز خالتى وتعمل بسرعة. أعرف أنى ليس من حقى التحدث إليها، ليس ذلك بالوقت المناسب، مبتسمة وعلى راحتها، تمسك نانا بالصلصال وبيدها الشاحبة، تتحسس وتداعب العجينة. وبأصابعها الرشيقة تصنع نوعًا من العصا تستطيل، تتأرجح وتتمايل مثل الثعبان. عندما تحصل الطول المناسب، تتوقف، ثم تقطعه إلى أجزاء وتحيط بحذر العجين الذى أعدته خالتى. مزودة بلوح صغير وناعم، تجذب الصلصال وتستدقه، فيعلو ويرتسم الجزء السفلى من الجدار. بعد ذلك، تشرع فى إكمال القعر الذى يليه، ثم الذى يليه، فسرعان ما تلحق بأختها.

لم تكن خالتى تعد أكثر من ثلاث أو أربع أوانٍ فى المرة الواحدة نظرًا لضيق الباحة. ما إن تنتهى من آخر تصميم، تعود نانا إلى أول إناء الذى جف قليلًا، نحن نقول إنها شرب. تأخذ من جديد عجينًا أسطوانى الشكل وتضيفه إلى الأوانى. بواسطة ممسحة، تسطح، تلمع وتستدق الصلصال، كما تزيل الزوائد. تعلو الجدران شيئًا فشيئًا، يتشكل إبريق أو قدر. تمسك بيدها اليمنى الممسحة وتشكل الجزء الداخلى، فى حين، تراقب يدها اليسرى الجزء الخارجى الذى تلامسه باستمرار للتأكد من أنه يأخذ هيكله. لا تصنع خالتى قعر الأوانى، تعمل بنفس حرفية نانا، غير أن الجميع، أجمع على أن الأوانى تخرج من يد نانا تحمل طابعًا خاصا، إنها دائمًا انسيابية الشكل، خطوطها متناغمة، رقابها رفيعة، خفتها ودقة زينتها تجعلها مرغوبة من أنيقات القرية. حتى إنه يُقال إن جمال ما تصنعه هو مرآة ما نحن عليه.

كل إناء له طابعه الخاص. يكفى أن تُرى إناء ما لتتعرف على يد الذى صنعته. تتفوق نانا على منافسيها بفضل تواضعها ورقتها. لذا تتمتع بسمعة جيدة وبالعديد من الزبائن.

لا تشعر خالتى بالغيرة، هى من أول المعجبين بأختها، تترك لها الأعمال التى تحتاج إلى دقة لتهتم بالأباريق وصحون الكسكسى الكبيرة والقدور. تمتلئ الباحة والمنزل بالأوعية، والطناجر التى تنتشر على الأرفف والتى تعترش فوق الإناء الضخم. منذ تلك اللحظة علينا أن نحسب خطواتنا ونتحرك بحيطة. لم نفر قط أنا أو بايا فى التخلى عن خالاتنا. نحن هنا للمشاهدة، غالبًا ما تكون خالتى سيئة المزاج، أما نانا فلا تضطرب أبدًا. كل إناء له تاريخه الخاص وكذلك طابعه. يصنع ويتطور وسط تقديرنا أو ازدرائنا. أحيانًا، لما تعلو ضحكاتنا الساخرة ينفذ صبر خالتى وتتوعدنا، فتدهس نادمة إناء غير انسيابى ليسقط على اللوح وليتحول إلى عبوة لا شكل لها. نختبئ ونحن نضحك خلف جرار ضخمة لا تنتظر سوى هفوة لتسقط، فتهدأ خالتى على الفور.

ما إن ينتهى هذا العمل الإبداعى، تتنفس خالتى الصعداء، الباقى ما هو إلا لهو. عندما تصبح الأوعية جافة، يجب تزيينها. الصلصال الذى يستخدم فى صنعتهم غالبًا ما يكون لونه أصفر أو أحمر. تغطى الأباريق، والأوعية والجرار وكذلك كل الأوانى التى لن تذهب إلى النار بطبقة من الصلصال الأبيض الذى يفرك بحصاة ملساء. ليست عملية التلميع معقدة. بايا وحتى تيتى يحق لهن تلميع إبريق صغير أو حتى

إبريقهن الخاص. عليهن تعلم تلك الصنعة. على هذا القعر الناعم، الأبيض واللامع، تقوم نانا وخالتى بالرسم. بفرشاة من الصوف الخشن، ترسم الخطوط العريضة، وتخط أشكالاً مثل المعين والمربع والدوائر باللون الأحمر. أما عن الخطوط السوداء الدقيقة والمستقيمة، لا أحد يستطيع رسمها مثل نانا بفرشاة من شعر الخيل. عليها أن تتحلى بصبر وخفة جنية لتتحكم فى تلك الفرشاة المارقة والتى تتكون من حفنة من شعيرات بغل، هذا الشعر المرن الذى يلتوى ويجول عشوائيّا قطراته السوداء على سطح أملس. تنجح نانا فى رسم الزوايا تمامًا مثل المهندس، تنجح فى رسم مربعات منسقة وأنيقة، كما ترصع بشريط لا يحيد كل الرسومات الكبيرة الحمراء التى رسمتها خالتى بالفرشاة الصوف. هذا العمل يستحوذ على خالاتى طوال فترة الربيع، أما الصيف فهو الوقت المناسب لتسوية الأوانى، ليس عليهن الانتظار، كومة الخشب معدة منذ فترة طويلة. يعد يوم التسوية يومًا عظيمًا. يتم تحديده مقدمًا بكل حيطة، لايجب أن يكون يوم خميس أو جمعة إنه لا يجب عصيان أوامر الرسول، وتمنع العادات التسوية يوم الإثنين لأسباب غير معروفة. طبقًا لذاكرة الخرافات، يتم الحصول على أفضل التسوية يومى الثلاثاء أو الأربعاء، على شرط أن تتوافق الظروف الجوية، سماء صافية وجو جاف. قد تسبب أقل نفحة هواء بعض الخسائر، حيث تتم العملية فى العراء خارج القرية. برغم كل الإجراءات الاحترازية، تعرف الخرافات أن هناك بعض المخاطر: ما لا يمكن توقعه أو تفسيره، الحظ أو الصدفة.

عندما تشعل النيران، يخفق القلب خوفًا. أحيانًا تطقطق النار، فتنفجر الأوانى كالألعاب النارية، ينتهى عمل موسم بأكمله على شكل حطام لوته النار، أو على شكل أوانى متحطمة ومتصدعة وغير قابلة للاستخدام. هنا لا يبقى سوى البكاء.

عندما تنجح تلك العملية، يشاطر أبى وأمى فرحة خالاتى. نعلم أن الحبوب سترتفع فى الإناء الضخم. يتم تبادل الأوانى الصغيرة مقابل حجمهن من الشعير، يتم تبادل الأباريق مقابل خمسة لترات، والجرار الكبيرة مقابل عشرة لترات كاملة. هكذا، تجمع خالاتى مؤن الشتاء، يطمئن أبى على حالهن، يتظاهر أنه لم يلاحظ أن أبناءه يستفيدون أيضًا. غير أن طريقته فى مساعدته لهن تدل على أنه يهتم بنجاحهن، فهو من يجد ومن يعد كومة الخشب الكبيرة، من يحث والدتى وأختى بايا على حمل الصلصال وتحمل بالنيابة عنهن الأعمال المنزلية.

يوم التسوية، يسهر دون أن يظهر عليه ذلك ليحرس الخشب فى المكان المختار. عند الفجر، تجده خالاتى فى مكانه ويحضر عملية الإشعال. بعد تسوية الأوانى، تأتى الكثير من النساء والفتيات لمساعدتهن فى حملها، غير أنهن لن تترددن فى سرقتهن. وسط هذه الجلبة، تفقد خالاتى صوبهن، إلا أن أبى يبقى هنا، بعيدًا قليلاً، لا شىء يفوته.

لا يستمر تبادل الأوانى فترة طويلة، بعد بضعة أيام، يصبح البيت فارغًا، يُحفظ الشعير ونشعر برحب وسعة فى منزل خالاتى.

غزل الصوف يحتاج إلى كثير من الوقت والدقة، إلا أنه لا يتطلب مكانًا فسيحًا. يشد نول الغزل على عمودين رأسيين، قريبًا من الحائط. يظل هنا لأطول فترة ممكنة، يقضين عليه خالاتى الوقت الضائع، تجلسن وقد ارتكزت ظهورهن على الحائط، فتدخلن شعر النسيج بين الخيط، ثم يتم كبسه بواسطة مشط حديدى. لا يمنع هـذا العمل الأحاديث. عندما لا ينصب النول، تنشغل خالاتى بتمشيط الصوف المغسول أو بغزل السلسلة بواسطة المغزل والمردن. نانا ماهرة للغاية، خيوط نولها قوية ورقيقة مثل الشعر، تستطيع الرسم على القماش كل ما ترسمه على الأباريق. خالتى أكثر توترًا أمام الصوف ما هى عليه أمام الصلصال. مازلت أسمع ضربات مشطها ذات الصوت المكتوم والسريع، بوقفات مفاجأة واستئناف غير متوقع. تسلك مسلك متشنج وكأنها آلة عنيدة. عندما توقف، ذلك يعنى أنها قطعت خيطًا من السلسلة، يجب ربط الطرفين، تشعر نانا بالاستياء، غير أنها لا تظهره؛ لأن ذلك يعنى أن تنهض خالتى وتترك العمل. فى هذه اللحظة، لا نسمع سوى الصوت المتناغم لمشط نانا، نعلم أنه يؤدى عملاً جيداً. أحيانًا، تسهر نانا للإسراع من عملها على ضوء خافت لمصباح يعمل بالكيروسين وينبعث منه دخان ورائحة كريهة. كم من المرات غفوت بين خالتى وبابا يهدهدنى قرع المشط المألوف إذا جفانا النوم، نتسامر بينما تعمل نانا.

ينبغى أن أعترف أن هذه القصص تجذبنى بشدة إلى منزل خالاتى، لم يقص قط علينا أبى وأمى أية قصص. لذا لم يحل لنا السهر معهما،

أحاديثهما تدور حول الحسابات والمشاريع، لم أفهم من مناقشتهما شيئًا، كذلك لا تبعث على أحد بالراحة. وأحيانًا ما تتخذ شكل النقد والنميمة، مما يؤدى بى إلى مقت جار أو قريب. مع خالتى الوضع مختلف، خلال القص، نصبح - أنا وهى - أشخاصًا مختلفة. تستطيع أن تخلق من لاشىء عالما خياليًا نهيمن عليه، أصبح حاكما وعون يتيم فقير يرغب فى الزواج من الأميرة، كنت أحضر بكل قوة انتصار ماكديش الصغير الذى هزم الغولة. كنت أعطى نصائح قيمة لحشياشى الذى يحاول أن يفلت من فخاخ السلطان المتعطش للدماء، يصبح وجها والدى القلقة وتنهداتهما بعيدة فى ليالى الشتاء التى لا تعرف نهاية، يفيض فم خالتى بالقصص، فأتشربها . هكذا تعرفت على الأخلاق وعامل الأحلام، عرفت العادل والبغيض، الضعيف والقوى، الماكر والبسيط. تستطيع خالتى أن تضحكنى وتبكينى. بالتأكيد، لم أكن لأتعاطف عن طيب قلب مع محنة عائلية حقيقية. شغلنى مصير أبطالى أكثر من مخاوف والدى. ذلك أن خالتى تنساق وراء روايتها هى الأخرى، فتضحك وتبكى تمامًا مثل ابن أختها . إذا كانت النهاية حزينة، نذهب إلى النوم بداخلنا نفس الشعور بالقلق، فأتشبث بها من الخوف. رأسها تملؤها الخرافات. سرعان ما صرت خبيرًا مثلها عن الأشباح، والبغل، وقربة الموتى، والصرخة السنوية للقتلى، ومواكب الأشباح التى تعلن الأوبئة. كنت أيضًا على علم بتحولات طائر الحجل، وطائر الحسون، والقرد، والبومة. يتقبل خيالى كل

شىء بسرور. أستمع إلى كل شىء مادمت محميًا تحت الأغطية بين بابا وخالتى، ومادام أغلق الباب بعناية قبل هبوط الليل. لكن إذا تواجدت بالخارج صدفة، يقف شعرى، يسرى الرعب بين أطرافى، كنت إما أجرى مثل المجنون، وإما أتسمر فى مكانى من الهلع. كنت أتخيل بعض الأشباح. ترافقنى، أو أصوات وخطوات تلاحقنى. نعم! دفعت حقًا ثمن تلك السعادة التى تغمرنى عندما أستمع لقص خالتى، حتى أنى لم أستطع التحرر من بعض مخاوفى حتى الآن. مهما تعقلت، لن أقهر أبدًا النفور الذى يتملكنى تجاه الموتى. لن أعبر أبدًا - دون أن تهتز منى شعرة - مقابر تيزى. صيحات طيور الليل ستظل دومًا كئيبة ومحملة بالحزن، أو بفأل سىء.

مع ذلك، لازلت ممتن لخالتى أنها علمتنى منذ الصغر أن أحلم وأن أخلق لذاتى عالم يناسبنى، على خلق أرض الأحلام التى أستطيع واحدى اختراقها.

(٧)

أتذكر وكأنه بالأمس يوم التحقت بالمدرسة. ذات صباح، عاد أبى من مجلس القرية وتظهر عليه علامات الغموض والانفعال. كنت فى باحتنا حيث يغطى أرضها روث الأبقار، وذلك بجوار الموقد الذى وضع عليه قدر الحليب. كانت أمى عائدة للمنزل لتوها. كانت ستأخذ ذرة ملح وبعض الكسكسى لتعد لى الإفطار. ينبغى أن أحدد أنى لم أحظَ بمثل هذا الإفطار إلا فى الحالات الاستثنائية. لأحصل على مثل هذا الامتياز، يجب أن تتوافر شروط عدة: أولاً أن يكون لدينا الكسكسى واللبن، ثم اختيار الوقت المناسب، انتظار غياب أختى الصغيرة لأنها كانت ستطالب بنصيبها، مما سيضطر أمى إلى مضاعفة الكمية المعدة أو إثارة؛ شهيتنا دون إشباعها بشكل تام.

فى ذلك الصباح، توافرت كل العوامل، وقفت وحدى أمام القدر، مازلت نعساً، غير أن معدتى مستيقظة تماماً.

للأسف! كُتب على أن أتعلم منذ الصغر أن بعض الأشياء تفقدك الشهية. بالفعل، عندما تحدث أبى، فقدت شهيتى، علاوة على إحساسى بالنعاس. لم يكن لأبى قرين فى إثارة ذعر الناس.

قال لأمى:

– أسرعى، أسرعى، نظفيه تماماً، الأيدى، الوجه، الرقبة والأرجل. هل تعتقدين أن يقبل الشيخ مثل هذا القرد؟

قالت أمى:

– جلبابه أيضًا متسخ، ربما علينا الانتظار للغد، سأغسل جلبابه وعباءته.

عند سماع هذا الاقتراح، اتسعت عينى!

– غداً لن يتبقى أماكن، كما أنه لا ينبغى بَدء الدراسة بالغياب، يُقال إن الفرنسيين حازمون ونحن ليس لدينا غيره، لا يجب أن يضرب بسببنا. لا داعى أن نصل متأخرين اليوم، فلنُسرع.

تم تنظيفى سريعًا، وبعد خمس دقائق وأنا مازلت مصعوقًا، وصلت إلى الباحة الكبيرة بالمدرسة حيث يحتشد التلاميذ، بعيداً كل البعد عن إفطارى. احتفلت تيتى بمفردها وسط العائلة بهذا الحدث متناولة قدر الكسكسى باللبن. شكل هذا اليوم علامة فارقة بالنسبة لها، فمصائب قوم عند قوم فوائد...

ترك أول يوم مدرسى، بل أسبوع وحتى أول سنة آثارًا قليلة بداخلى. مهما فتشت عن الذكريات، لا أجد شيئًا واضحًا. كان لدينا معلمان، كلاهما من سكان منطقة القبائل: أحدهما بدين، ممتلئ الخدين،

كذلك لديه عينان صغيرتان وضاحكتان لا تُلهِما الخوف. أما الآخر، فكان نحيفا، شاحبا، قليل الكلام، ذا أنف طويل وشفاه غليظة، إلا أنه لطيف تماماً مثل المدرس الأول. كان الأصغر عمراً وكان يدرس للفصل الثانى. يرتدى كلاهما أزياء فرنسية تحت عباءة رقيقة وناصعة البياض. ظل طويلاً هذا الرداء يشكل بالنسبة لى قمة الذوق والأناقة والرفاهية.

أما المعلمان فى حد ذاتهما، يأخذان بالنسبة لى، حتى وقتنا هذا ودون أن أدرى، الصورة المزدوجة التى أرى نفسى عليها: المعلم من السكان الأصليين، المدير ومساعده.

لا أخفى حرجاً فى أن أقول إذا كنت تلميذاً جيداً أم لا، على الأقل لم أكن أشعر بأى نفور تجاه وضعى كتلميذ. سبقنى صديقى عقلى، الذى ظل يحمينى، بعام إلى المدرسة، كان فخوراً بأقدميته وعرض على أمى أن يفيدنى من تجربته. فى كل صباح، ينادينى وينتظرنى أمام الباب، فنجرى معاً إلى المدرسة. يجلبنى مرة أخرى فى الحادية عشرة وكله فخر. لكنه فخر شرعى، نابع من إحساس بتأدية الواجب. أحياناً، يشاركنى طعامى، أو يحصل على بعض التين، اعتاد على ألا يرفضه واعياً أنه كسبهم عن حق. بالفعل، بفضله، صرت ممنوع الاقتراب منى من جميع الصبية فى عمرى؛ لأنهم يخشونه. أما من هم أكبر سناً، فكانوا يتركوننا لحال سبيلنا؛ لأن من بيننا أخاهم والذى كان بالصف الأول.

إذا شرحت أنى كنت أخاف وهادئ الطبع، لا أحاول إثارة أحد، كذلك التحق خمسة عشر طالباً من حينا بالمدرسة والانتماء للعشيرة قوى

فى قلوبنا تمامًا مثل أهالينا، سنفهم لماذا كان هناك دومًا من يدافع عني وكونى ابنًا وحيدًا لم يسبب لى فى المشكلات الاعتيادية التى يلاقيها الأبناء المدللون فى المدرسة.

أذهب إلى المدرسة دون تفكير، أفعل ذلك مثلما يفعله كل الأطفال، الوقت المفضل لدى فى اليوم كانت الساعة الحادية عشرة عندما نصعد منقطعين الأنفاس إلى بيوتنا لنلتهم الكسكسى المُعد فى انتظارنا. بالطبع، كان هناك اللعب، غير أننا لم نكن مضطرين للذهاب للمدرسة للعب. تعلمت فيما بعد أنه يمكن تقديم تعليم جذاب فى المدارس، أن هناك وسائل لتقليل مجهود الطالب، لتحفيز اهتمامه، هذا ممكن فالكبار يقولون أشياء كثيرة لطيفة. أعتقد أن طفلاً من سكان القبائل لا يتعدى عمره سبع سنوات لا يحتاج إلى كل ذلك، ينتبه بسبب الخوف أو لحفظ ماء وجهه، يكفى تفادى ضرب المعلم ومزاح زميله الذى يجاوره والذى يستطيع القراءة. فيما بعد، يستيقظ بداخلنا الاهتمام ويحل محل الخوف، فنبدأ بالفهم، أعتقد أن هذا ما حدث لى. من لا يفهمون يعتادون الضرب الذى لم يعودوا يخشونه، ويحفظون ماء وجههم خارج الفصل، يصيرون أفضل لاعبين أو أفضل "مشاكسين". خارج الفصل لم نفكر قط بالتباهى بما اكتسبنا. زعيم اللعب فى حيينا صبى أجرب لم يقبلوه فى المدرسة، لم يتخيل أنه أقل مننا، ولديه الحق فى ذلك. لا يبدو أن آباءنا أو مدرسينا يهتمون بما نفعله داخل الفصل، بالتالى، أصبح اللعب شاغلنا الشاغل. أقمنا مسابقات تتكرر تقريبًا كل عام. تبدأ تلك المسابقات فى شهر أكتوبر

باللعب بالكريات، بثمار البلوط، أو الأزرار، فى هذه الحالة، كنا نزيلها من جميع القمصان القديمة أو السترات البالية، ثم جاء دور لعبة النحلة الدوارة، نحال دوارة منتفخة ومرتخية تُشترى من المدينة أو نحال طويلة صنعها آباؤنا، تدور بخفة وتصدر صريراً حاداً.

فى الربيع، نصنع مسدسات من خشب نادر نذهب لجمعه بجوار النهر، يليها اللعب بالأطواق، العظيمات والمزامير. حفرت الأخيرة بداخلى ذكريات لا تنسى.

ذات مساء، بعد الساعة الرابعة عصراً وبعد أن أمضيت باقى اليوم مع زملائى، خارج القرية، عدت إلى المنزل ممسكًا مزماراً صغيراً، محاولاً بإصرار تذكر مقطوعة تعلمتها للتو. كان أبى يخلع نعليه عند عتبة الباب، كان عائداً من الحقل، أمى التى بحثت عنى سدى لأشترى لها شيئًا، اشتكت من غيابى.

- ها هو، قال أبى، لا تخشى شيئًا، فقد عاد إليك، ومعه مزمار! لنحمد الله، إذ إنه لا يتعلم شيئًا فى المدرسة، إلا أنه لا يضيع وقته مع زملائه.

ثم أضاف:

"لم أعد أتعجب من شكوى معلمك، أرى ذلك بوضوح، فأنت تبدد وقتك، فبسبب كسلك مازلت فى نفس الصف الدراسى، لقد قال لى معلمك ذلك".

بالفعل، كان هذا عامى الثانى بالمدرسة وكنت مازلت بنفس الصف، اندهشت كثيراً عند سماع هذا الاعتراف غير المتوقع. فيما يبدو، قد تحدث معلمى إلى أبى، تخيلت أنى غير مرئى بين زملائى الخمسين، غير أن اعتقادى لم يكن فى محله، فالمعلم على دراية بمستواى، كما أنه يعرفنى جيداً ويعرف والدي! هذا يعنى أنه يعرف جميع تلاميذه، يفضل المجتهدين منهم، ويمقت الكسالى. غير أنه لم يكن هناك أية علامات واضحة تشير أنه يفرق بيننا. حاولت إيجادها سدى. فليكن! على أن أحتكم إلى الواقع، إنه قال لوالدى إنى تلميذ كسلان. ظن أبى أنه أحزننى بسبب لكنته الحادة. بداخلى، غمرتنى سعادة لعلمى أنه يهتم بما أفعل، أنه أحزنه أن أكون من بين التلاميذ الكسالى، وأن المعلم يشاركه هذا الألم. جعلنى هذا العقاب البسيط أن آخذ الأمر بجدية. بالغت فى تقدير أهميتى. فى حقيقة الأمر، غضب أبى من تضييعى للوقت أكثر مما غضب من وضعى بالمدرسة. أنا على يقين أنها بمحض الصدفة، خلال محادثة عادية، عن طريق تبادل أفكار ما، تحدث معلمى مع أبى. لم يمنع أن هذا الموقف لعب دوراً فى تحديد مستقبلى كتلميذ. منذ ذلك اليوم، صرت تلميذاً مجتهداً، تقريباً بلا مجهود.

كان هذا الدور الوحيد الذى يناسبنى. فى كل مرة يتحدثون عن التخصص والتوجه المهنى فى المدرسة، أبتسم وأتذكر كيف تخصصت أنا وزملائى بالمدرسة. هناك المحاربون، هؤلاء ملوك المدرسة،

يحظون بإعجابنا دون تحفظ. هناك اللاعبون المتعطشون للعب والذين يتسمون باللعب ويتمتعون بصحة من حديد، هؤلاء صاخبون، غير مبالين، كذلك يتمتعون بشعبية. أما من يؤثرون السلامة ويخشون على أنفسهم، تبقى متع الدراسة النبيلة والمراكز المتقدمة فى عيونهم، كانت أكثر المتع نبلاً بالأخص أنهم لم يستطيعوا الحصول على غيرها. كونى مسالماً منذ الميلاد، لم يكن فى مقدورى أن أنتمى إلى الطائفة الأولى أو الثانية. بمباركة جميع زملائى، أصبحت تلميذاً نجيباً. جاهد كثيرون، أكثر منى، ليرونى فى الصدارة؛ لأن فى غالب ما يؤثر ذلك على مكانة العشيرة.

منذ مرحلة التعليم الأساسى، أجتهد بجدية منقطعة النظير، دون علم والدى اللذين أظهرا عدم مبالاتهما حيال تقدمى. هل أتيحت الفرصة لمعلمى الذى لاحظ هذا التقدم أن يتحدث إلى والدى؟ لا أعلم. هل أرباب الأسر الذين يمضون وقتهم فى إطعام البطون الصغيرة يستطيعون أيضاً الاهتمام بعقول صغارهم؟...

(٨)

بالفعل، عانى أبى الأمرين لسد احتياجات عائلته. لن أتجاوز الحقيقة، إذا قلت إن الفائدة الوحيدة الواضحة لإلحاقى بالمدرسة هى غيابى الطويل من المنزل، الأمر الذى قلل كم التين والكسكسى الذى كنت أتناوله. فى هذا الصدد، أتذكر من شكاوى والدتى خلال إجازة الصيف وهى تنتظر بفارغ الصبر عودة الدراسة. لتلبية احتياجاتنا، كانت تحتاج إلى كثير من الحيل، أما والدى فكان لزامًا عليه أن يكد.

لم يرث أبناء شعبان الكثير ولم يملكوا رأس مال. عندما كنا نعيش تحت سقف واحد، عمل أبى وعمى بكد منذ بداية العام حتى نهايته. نجحا فى الحفاظ على ماء وجههما، وتركا انطباعًا بأنهما يعيشان فى رغد. تمسك جدتى بزمام المنزل بأمان عال وتُطاع أوامرها.

فجأة وافتها المنية فى العام الذى التحقت فيه بالمدرسة، لم أكن أفهم حتى ما هو الموت. بكتها قليلاً زوجات أبنائها، وتخيلن أنهن صرن أحرارًا. تكفل أبناؤها بجنازتها بأفضل ما يمكن. أحى ذكراها ثلاثون حانوتيا طاعنين فى السن رتلوا أناشيد دينية، كذلك تم ذبح خروف

وتقديم الكسكسى لفقراء القرية، رافقها إلى مثواها الأخير اثنا عشر مربوطًا. أبهة ما بعدها أبهة. استثارت مظاهر العظمة والأبهة غيرة العجائز حتى إنهم أظهروا علانية رغبتهم فى أن يمنحهم أبناؤهم جنازة مماثلة. امتدح آخرون المتوفاة، قائلين إنها كانت حقًّا وتد المنزل، لم أحتج لوقت طويل حتى ألاحظ ذلك. ليلة الدفن، تعاركت أمى وحليمة حول ميراث جدتى، تعجبت من ذلك، غير أن لاحظت أن والدى وعمى وافقا على تلك المناقشة، حتى إنهما اشتركوا فى الحديث ليدفع كل منهما عن زوجته.

بعد بضعة أيام، كان على إحداهما أن تمسك بزمام المنزل، كان هناك مرشحتان، تدخل الجميع فى هذا الأمر، أثارت الجارات تارة أمى، وتارة زوجة عمى. تدخلت أخواتهن مقدمات العون والنصيحة. فى النهاية، قرر أبى أن يتصرف كأخ وديع؛ لأنه الأصغر ومنح كنوع من الاحترام هذه المهمة لزوجة عمى. ترك هذا التصرف اللطيف أثره على عمى، غير أنه لم يؤثر قط فى زوجته. لم تعتبر والدتى نفسها منهزمة. رغبة فى مقاسمة الميراث، وكذلك حليمة لم تكن ترغب فى أكثر من ذلك. ولم يتأخر ذلك طويلاً، حيث بدأت زوجة عمى بالسرقة، وسرعان ما لاحظت والدتى ذلك وبالطبع أخبرت والدى. أمسكها الأخير متلبسة بالسرقة من إحدى الجرار حيث نحفظ لحم العيد المجفف. استولت حليمة على قطعة كبيرة، مخصصة لأغراض أخرى غير الطهى فى القدر العائلى، هبت العاصفة. أُثبت أن الجميع يرغب بداخله فى تقسيم الميراث، سئم الجميع العيش

تحت سقف واحد، حيث انعدمت الثقة. من الجلى إذن أن جدتى كانت وتد هذا المجتمع، بما أنه انهار مع اختفائها.

ما كان عليهم مقاسمته؟ ليس الكثير؛ أولاً المسكن، ترك أبى إجلالا لشقيقه الأكبر حرية الاختيار، فاستولى عمى على المنزل الكبير بسندرته الضخمة، وجراره الضخمة والعديدة، تحت السندرة يمكن إيواء ثوريين، حمار وخروف، بكت أمى من الحسرة. حصلنا على الحجرتين الصغيرتين المقابلتين للمنزل واضطرت عائلتى لتحويلهما إلى حجرة كبيرة واحدة، مثل التى كنا نعيش فيها سابقًا. تقاسمنا الباحة بحبل، حصل كل جانب على نساجة طويلة لكن ضيقة. فيما بعد، حقل تين وحقل زيتون، بشكل عادل على قدر الإمكان، منتقصين هنا، منصفين هناك. فيمنح صاحب قطعة أرض شجرة تين أو زيتون ضخمة فى أرضه للآخر. فتتداخل النّصب، تدق أو تقلع. أخيراً، تقاسمنا الأوانى، والبهائم والديون.

خلال هذا الأسبوع، انشغلت الزوجات، تغمر الفرحة وجوههن، كما يتلقين زيارات مستمرة، توافدت الجارات لتهنئتهن على منزلهن الجديد.

قلن لأمى:

– اسعدى يا فاطمة، صار لديك منزل لكِ وحدك، يمكنك تحمل كل أنواع البؤس، حتى يمكنك أن تأكلى الأرض. أمك قديسة لم ترثى عنها لعنات.

– فليحفظ الله كل أعزاء والعاقبة عندكن؛ لأزوركن قريبًا فى مناسبة سعيدة، تجيبهن أمى.

وهكذا تتوالى المجاملات.

خلال ذلك الوقت، عرف الحزن طريقه إلى قلب الأخوين. شعرا بثقل مضاعف لحملهما بعد الانفصال. تراءى لهما أن المستقبل لا يحمل لهما خيرًا، أنهما افتقرا إلى نصف أملاكهما وكذلك خسرا نصف قواهما. الأيام التى تلت التقاسم، أخذا يتبادلان العزائم بسعادة. دعانى عمى على كل الوجبات، حتى حليمة تعجبت لأمرها حيث شعرت برغبة فى تدليل فورولو. بعدما وقع ما لا يمكن إصلاحه، ندم الجميع قليلاً. غير أن الندم لا يتخطى مقدار أن ما حدث لا يمكن إصلاحه. يقول چيرونت لسكابان(٦): "أغفر لك بشرط أن تموت". تباعدت العزائم، طفت الأحقاد على السطح، ضاعفها أحقاد أخرى أتت من الجيرة الداخلية والخارجية، بالإضافة إلى الغيرة.

عمل ربا العائلتين بكد حتى يطعما أهلهما. إذا لم يتمن الفقر أحدهما للآخر، لم يعودا قادرين على مساعدة بعضهما. أما عن وضع الزوجتين، فكان مختلفًا، لكونهن غريبتين، لم تقدر إحداهما الأخرى. تحولتا إلى عدوتين. وبدآ بالعمل الجاد، ساعدن أزواجهن، هذبن أولادهن، كرسن كل جهودهن، وعقدن عزمهن على تحقيق هدف واحد أسمى:

---

(٦) چيرونت وساكابان شخصيات للكاتب المسرحى الفرنسى موليير.

إظهار أمام الجميع أننا لم نخسر شيئًا بعد التقاسم، أننا أكثر سعادة مما سبق، وبالأخص أننا أسعد من الآخر.

فلاح صلب، قلع أبى الأرض وفلح وزرع بلا توقف. خلال بضعة أعوام، تغير شكل قطعتى الأرض، بالإضافة إلى ذلك، كان يربى زوجًا من الثيران، حمارًا، ومعزة وخروفين. لم تكن الثيران ملكًا لنا. عهد بهما إلينا أحد الأغنياء فى الربيع، نسمنهما وبذلك نستطيع الاستفادة من أملاكنا. قرابة شهر أكتوبر، نبيعهما ونستفيد بثلث ثمنهما. كنا نملك الحمار، والمعزة والخروفين. يقدم لنا الحمار الكثير من الخدمات، يحمل على ظهره الخشب وشوال العشب من الحقل. ويحمل إليه السماد، كما يحمل إلى المدينة العنب والتين، ويعود بالشعير للعائلة، أو فى المواسم الخضار، البهارات، الكوسة والبطاطس، تتبادلهم أمى مع جارتها أطباق الخضار مقابل الحبوب.

نشترى صغار الخراف، يكبرن، يسمن، وقرب العيد، نبيع واحداً يأتى برأس مال الخروفين. فى كل عام، يفخر أبى أنه ذبح دون أن يتكلف مليمًا خروفًا على شرف الرسول.

بالإضافة إلى اللبن، تعطى المعزة بانتظام صغيراً أو اثنين يبيعهما أبى بسعادة بالغة. أحيانًا، كنا نأكل أحدهما. تأتى بسهولة الحجج للتضحية به: تعانى أمى من بضعة أمراض تتحدث عنها دومًا، على الرغم من أنها غير مرئية. وبالصدفة، ينصحها أحد الدراويش بذبح معزة من اللون نفسه، إذا لم تكن أمى، فأبى الذى تعرض لضربة الشمس،

وبالطبع يعلم الجميع أن هذا المرض يأتى من مس الجن الذى لا يترك المريض إلا بعد سيل دم معزة من اللون نفسه معزتنا. الشخص الثالث الذى قد يؤدى إلى التضحية كان الابن الوحيد. أما الأخوات، فالجن الذى يمسهن لا يتجرأ سوى أن يطلب بيضًا. نتسول لأبى أسبوعًا بأكمله حتى يقبل أن يشترى لنا لحمًا من السوق كل شهرين أو ثلاثة. غير أنه على استعداد لذبح المعزة.

فى ذلك لا يختلف عن باقى الفلاحين، اللحم سلعة نادرة فى منزلنا، أو بالأحرى الكسكسى الطعام الوحيد لأهلنا، وبالفعل لا نحصى كبشة الحمص والفول التى نضعها فى القدر مع قليل من الدهن وثلاثة لترات مياه لإعداد المرق، ولا ملعقة الزيت التى نضعها فى كل وجبة، ولا حتى حفنة التين التى نقضمها من حين لآخر. فيما عدا ذلك، لدينا مقدرة على التهام كل الأعشاب الخضراء القابلة للطعام التى تقع تحت أيدينا فى الحقول. كما نتمتع بكامل الحرية فى أن نملأ بطوننا بمياه الترع الجارية التى تسقط على المنحدرات. كما يمكننى – فى باكورة الموسم، قضم كل الخوخ والتفاح والكمثرى الخضراء التى تحتملها أسنانى. نحن من ساكنى الجبال، نتسم بالصلابة، يقولون ذلك دومًا لنا. ربما يكون ذلك مسألة وراثية، هى بالتأكيد انتقاء الطبيعة. إذا ولد شخص ضعيف، لا يستطيع احتمال النظام، يقضى عليه فى الحال، إذا ولد قويًا، يحيا ويقاوم. قد يصبح فيما بعد ضعيفًا، يتكيف، هذا هو الأساس.

لنعد لعائلة منراد، نجح الأب رمضان بكثير من الحرص فى التوفير لأهل بيته قليلاً من الكسكسى اليومى. عندما تتوقف أعمال الحقل بشكل مؤقت، فى الفترة التى تفصل على سبيل المثال بين قطع الحشائش والحصاد، أو بين الحصاد والدراس، يعمل أجيراً باليومية مع بنيين يشيدون للأغنياء. عندما تم بناء أول معصرة تعمل بمكبس هيدروليكى وتحتوى على بئر ومضخة، عمل أبى هناك اثنى عشر يومًا. تركت هذه الأيام بصماتها على.

بدأت الأعمال فى شهر يونيو فيما أعتقد. كنا مازلنا فى المدرسة. كان موقع العمل فى مواجهتنا، على بعد مائة متر. عمل هناك أيضًا ابن عمنا قاصى – والد سعيد – وعرب، والد عاشور، زميل آخر بالمدرسة. منذ اليوم الأول، اقترح علينا سعيد أن نزور والدينا فى تمام الحادية عشرة. وافقت أنا وعاشور. فهمنا من بين الكلام ما يعنيه سعيد. أليست فى الساعة الحادية عشرة الوقت الذى يتوقف فيها صاحب العمل للغذاء؟ إنه رجل متعلم يتباهى بأنه أخذ بعض العادات عن الفرنسيين: يأكل فى مواعيد ثابتة. وكذلك مستخدموه. ذهبنا إليهم فى توقيت ممتاز وقت تقديم الوجبات. شعر آباؤنا بإحراج تام، إلا أن صاحب العمل كان كريمًا. أمرنا بالجلوس وأكلنا ورؤوسنا منخفضة. وأكلنا على الرغم من ذلك. أولاً، تناولنا حساء لذيذًا بالبطاطس وحصل كل منا على قطعة كبيرة من الخبز، تلتها كسكسى من السميد الأبيض معه لحم. أمام مثل هذه الغنائم، تعلو الفرحة على الشعور الأول بالخجل. فرحة حيوانية تنبع

من بطوننا الفارغة. ما إن امتلأت، حتى هربنا بينما يسيل العرق على جبيننا. لم نشكر أحداً، أخذنا فقط معنا ما بقى من لحم وخبز. بعد قليل، استرجعنا رشدنا لتقييم ومقارنة غنائمنا. افترقنا بعد أن شكرنا سعيداً على فكرته اللامعة. فى حقيقة الأمر، يفتقد الشكر الذى تقدمنا به كثيراً من الحرارة، وكذلك قبله سعيد بفتور. تراءى للثلاثة نهمين صورة أبيهم الغضب والحزين. ما سيقول فى المساء؟

كما توقعت، لم يسر أبى من فعلتى. لم يلح على الموضوع كثيراً حتى لا يحزنى، كما وعدنى بإحضار لى أكبر كم من هذا الطعام. وثقت أنى لن أذهب أبداً إلى موقع العمل. وفى بوعده، حنثت وعدى.

فى اليوم التالى، بالمدرسة، لم يرغب أى من الثلاثة، متآمرين، فى ذكر ما حدث لليلة السابقة. كيف قابل سعيد وعاشور والديهما؟ لم أجرأ على السؤال، غير أنهم لم يكونوا مدللين بطبيعة الحال. فى تمام الحادية عشرة، تحاشى كل منا الآخر، وأسرع كل منا لتناول وجبته المعهودة المتكونة من كسكسى مصنوع من الشعير(٧)، هذا ما كان علينا فعله كل يوم. هذا ما كنا سنفعله لولا حساء البطاطس اللذيذ، تطاردنا ذكراه بلا هوادة. لم يفارق طعمه حلقنا ولو لثوانى معدودة. أما باقى الوجبة، فكان يأتى فى النهاية فقط ليطيل تخيلاتنا.

---

(٧) أفضل أنواع الكسكسى مصنعة من السميد، أما الكسكسى المصنوع من الشعير فهو أقل جودة وغامق اللون.

بعد يومين، خلال فترة الفسحة، سعيد الذى لم يعد يقوى على ذلك، اقترب منى دون سابق مقدمات وأخذ يحدثنى عن الحساء. تطابقت آراؤنا، أسلنا لعاب مستمعينا. بما أن الموقف قد مر، نستطيع الحديث عنه. على سبيل المثال، لم يجرؤ كلانا على ذكر مشاريع مستقبلية. من منا سيجرؤ على اقتراح زيارة ثانية للموقع؟ كنت نهمًا، ولكن سعيد كذلك؟ قبل أن يأتى إلى، ذهب ليتحسس الطريق من ناحية عاشور. غير أن الأخير لم يظهر تحمسه، ربما لأنه تعرض لعقاب شديد، ربما ترك العقاب الذى تلقاه بعد جولتنا الأولى أثره القوى. لذا لم يمكن الاعتماد عليه، معى كل الآمال مباحة. "اشتغلنى" سعيد طوال فترة الفسحة، فى الحادية عشرة، اندس فى زمرة التلاميذ ليصل إلى ولازمنى كظلى.

وصلنا إلى المفترق، توقفت، تلقائيًا، نظرت إلى اتجاه المعصرة، قام بالفعل سعيد بالحركة نفسها. ثم أدار وجهه، تلاقت نظرتنا، فهمنا ما يريد كل منا، فأمسك بيدى وهرعنا مثل المجانين إلى العمال. لم نسترجع رشدنا إلا على بعد عشرة أمتار من الموقع. أصابنا الذعر من شدة وقاحتنا، فحاولنا الاختباء تحت كومة قش. لم يَثْنِ لنا الوقت، فقد رأونا، نادى علينا قاصى غاضبًا وطلب منا نعود أدراجنا. انطلق سعيد مثل السهم فى اتجاه المنزل، ترك أبى عمله، واتجه نحوى بهدوء وطلب منى ألا أتزحزح من مكانى. تسمرت والعار يملأنى. لحق بى، وضع يده الضخمة والمتسخة بمواد البناء على، قال لى:

– اتركه ليرحل. اذهب لتجلس إلى جوار قاصى، ستأكل مكانى، سأصعد إلى المنزل لأستريح، لست جائعًا اليوم.

هذه الوجبة، تحت نظرات ازدراء الرجل، كانت تعذيبًا بالنسبة لى. سخر قاصى وعرب من هؤلاء الذين أخفقوا فى تهذيب أبنائهم. الكلام واضح، تلون وجهى خجلاً. رددت لنفسى لأقلل من جسامة خطئى أن أبى لم يكن جائعًا. كنت مخطئًا؟ لأن عند عودتى إلى المنزل، وجدته، بين يديه، طبقى الصغير من الفخار المزين بمربعات حمراء وسوداء، كان ينهى وجبة الكسكسى الأسود المخصصة لى. فى هذا اليوم، عاد إلى العمل بمعدة فارغة، ألا أنه حفر إلى الأبد فى قلب ابنه مقدار حنانه.

(٩)

فـهـمت الآن لمـاذا أسـرعت حلـمـيـة وأمـى بـعـمليـة الانـفـصـال لتـصـبح سيدة المنزل، لا يفوتهن شيء.

بالنسـبة لأمى، الموضـوع بسيط: زوجـهـا هـو الابـن الأصـغـر وبـذلك لا يجنى سوى عيوب تلك الشراكة. إنه الأصـغـر، أى الأقـوى، كمـا أنه من يعمل وسيعمل بكد إذا عمل لحسابه. فيما يخصـهـا، تدعى أنها أكثـر رصـانة من حليمـة، كمـا أن أطفالهـا، أصـغـر من بنات عمـهم، وبالتـالى لا يأكلون مثلهن. هكذا الانفصال يضمن كل المكاسب.

خمنت حليمة هذه الحجة. إذا كان رمضان يعمل، فإن لونيس يتمتع بصـلات قوية ولديه أصـدقـاء قادرون على مسـاعدته. لا يخلو اجتماعٌ من تواجـده. زوجـهـا رجل "حكيم"، كمـا أن لا يوجـد دليل علـى أنه لن يعـمل أفضل من أخيه. تعرف أنها ستساعده قدر استطاعتها، ستحل محله إذا اقتضى الأمر: كل شىء لبنـاتـهـا وليس لأحد آخر. علاوة على ذلك، بنـاتـهـا لسن صـغـاراً. إذا تزوجت إحداهن، سيـصـبح المهر من حق بناتها فقط. إذا بقين، سيجدن عملاً.

تبلغ البكرية جواهر من العمر عشرين عامًا وقت تقاسم الإرث. نحيفة وعصبية، تلمع عيناها بالخبث كقطة صغيرة تخربش وتعض، ألا أنها قادرة على إدارة شئون المنزل وحدها. إنها عدوة أمي اللدود بخاصة أنها تتجسس عليها وتشى بها.

أم الخير، أصغر قليلاً، بدينة وعنيدة. تجمع بين شكل أبى وطباع أمها، لونيس واثق أنها لن تتزوج أبدًا، تسببت للعائلة فى جميع أنواع السخرية والشحنات اليومية. حليمة عقدت عزمها على تعليمها صنع الفخار وغزل الصوف. ستنجح يومًا أم الخير فى ذلك رغم سخرية أبيها وغيرة أمي.

ثمينة فى نفس عمر شقيقتى الكبرى بايا، لذا هما عدوتان لدودتان. تعيدان بدقة متناهية مشاحنات والدتيهما، كأنهما بارومتر لا يخطئ أبدًا. فى اعتقادى، تثأر بايا لضعف أمى مستغلة ضعف ثمينة. تنتمى ثمينة إلى تلك النوعية من البشر التى لا تمتلك سوى لسانها لتقنعك بشجاعتها. لديها عينان كبيرتان، وفم واسع وكأنه خلق حتى لا يتوقف عن الكلام، تخنخن قليلاً بصوت صبى أجش. أما بايا فهى قليلة الكلام ومنغلقة على نفسها، لذا تتركها تعيد وتزيد من الكلام حتى اللحظة التى تمسك بها عازمة على التصرف، فتهذبها حقًا، تنهى ثمينة تهديداتها وسط الدموع ونزيف الأنف، طرحتها على الأرض، شعرها على وجهها.

شبحا، أصغر بنات عمى، أكبر من شقيقتى تيتى. تلك المسكينة الصغيرة لديها وجه شاحب، مازلت أتذكر شفتيها المتجعدتين،

عينيها الصفراء وخدودها الممتلئة والمتدلية. يتجاهلها الجميع، يحنقون عليها؛ لأنها جاءت إلى الحياة وربما لأنها مصرة على التشبث بها. على الرغم من ذلك، تتمتع بالذكاء، حتى إنها تعلمت دون أن يرشدها أحد أن تصنع الفخار وأفضل من أم الخير. كما أنها الوحيدة التى لا تمقتها والدتى لأنها ارتبطت بى. قلب شبحا الصغير والمحب والمتسلم لم يفهم قط ولم يستمع أيضاً إلى مقت أمها لفورولو. توفيت منذ زمن بعيد شبحا، إلا أن ذكراها ظلت حية بداخلى، كانت بمثابة أول صديقة لى.

عندما تم تقاسم الإرث، أصبحت حليمة غليظة مع نفسها ومع بناتها. أرادت الثراء وتمردت على فقرها. كانت سيدة أفعال، لا يوقفها أى وازع.

نقطة البدء كانت مماثلة للشقيقين: ما يملكان، حقل تين وحقل زيتون. ما عليهما: دين صغير وأطفال يجب تربيتها.

لتظهر تفوقها منذ أول شتاء، حليمة جعلت لونيس "يراعى" حقلين زيتون، يملكها على ما يبدو قريب غنى. هذه عادة سارية: يمنحك المالك قطعة أرض ما عليها بعض الأشجار. نرعاها، نجمع الزيتون، نعصره، ومن ثم يحصل المالك على الزيت. قدرة كل مكان على الإنتاج معروفة بكل دقة، كذلك إنتاجية الزيتون ونوعية الزيت، لا يوجد مجال للخطأ. تتم الصفقة على نحوين: قد يتم الاتفاق على كمية زيت ثابتة، فى هذه الحالة المزارع غير الشريف يفقر مستخدمه. يحدث أحياناً أن مسكيناً وأبناءه يضطرون إلى الموافقة على تحمل دين، تساوى قيمته ضعف اللترات التى لا يستطيعون تسليمها. الطريقة الثانية: يسمح للمالك الحصول على جزء من المحصول وهو غالباً الثلثان. هنا يستطيع المستخدم السرقة

ولا يتوانى عن ذلك. فقط يتم أخذ الاحتياط، وإعطاؤه حقولا بعيدة وغير مهمة. كما يتم اختيار الأقارب الذين سيستنفعون بطريقة أو بأخرى من المحصول. يمكن أيضًا إعطاء أشجار زيتون مثمرة لفترة محددة، أى الفترة التى تسبق سقوط الثمار. ما أن ينضج الزيتون، يجمع بوفرة. لن يقبل باقتسام المحصول سوى من فقد عقله.

من المعروف أن "العمال" – من يعملون فى الأرض- يتم توظيفهم بين الفئة التى لا تتردد على إرسال بناتها ونسائها فى حقول الغير. فى حياة جدتى، لم تجرؤ حليمة على التصرف على هذا النحو. جدتى كانت لتحفظ كرامتها!

اختفى تأنيب ضمير لونيس أمام الربح الأكيد. أخذ فى عهدته حقلى الزيتون مقابل ثلثى الزيت – عليه تسليم الثلثين. يتعامل مع أحد الأقارب، ابتعد كل أبناء عمومتنا عن أبى، يبدو أنهم يرغبون فى مساعدة عمى. تجتر والدتى غيرتها، يفلح والدى الأرض بكل ما أوتى له من قوة. تراقب كل من فاطمة وبايا عن كثب أشجار الزيتون التى نمتلكها. تمسكن بأى محاولة سرقة ولو لحبة زيتون سقطت، تعدن بصعوبة بسلة ممتلئة أو نصف ممتلئة. فى حين تنعم حليمة وبناتها بوفرة. منذ الفجر، نسمع حركتهن بالأخص فى الأيام التى تشتد فيها الرياح. كقائد كتيبة، تقوم الأم بتوزيع الأدوار دون تردد. تذهب معها جواهر، عليهن تمشيط المكان بأكمله، وعليهن البحث عن الثمار المترامية حتى حدود الحقل، أو حتى تلك التى سقطت بين الأعشاب أو فى قاع الوديان. الحبات التى

تسقط هى التى تحقق الربح الفعلى "للعمال"، ليس لدى الثرى الوقت لاحتسابهم ولا حتى لتقييمهم.

- افتحى عينيكِ يا ابنتى، هذه الحبات تمثل المكسب لنا.

لا تحتاج جواهر أن تستمع إلى المعلومة مرتين. تشكل عادة الوديان الصغيرة الحدود بين الحقول. فكيف تفرق بين زيتونك وزيتون جارك؟ بقانون: "من سبق أكل النبق". جواهر وحليمة هما دومًا أول من تذهبان إلى الأماكن الإستراتيچية. تنظفان جميع التلال والأخاديد التى تخدش الأيدى بفعل الأشواك، غير أن الفرح يغمر القلوب. يمكن سرقة الجار بضمير مستريح.

تعمل ثمينة وأم الخير معًا، تذهبان إلى الحقل الآخر وتتبعان التعليمات نفسها؛ لأن حليمة لا تثق فيهما تمامًا، تشيعهما دائمًا إلى مكان تم تمشيطه فى اليوم الذى يليه. مع الزيتون، تأتى أربعتهن بخشب ميت. سرعان ما صار لحليمة أكبر كومة خشب فى الحى، ننظر لها جميعًا بحقد.

كل صباح، قبل الرحيل، يتم تسخين وجبة اليوم - نصفها من الكسكسى ونصفها من البلبول(٨) فى صحن كبير من الفخار الأحمر.

(٨) "البَلْبُولْ" هو أيضا من أشهر المأكولات فى الجزائر ويحضر من الخبز اليابس الذى يهرس، ثم يفتل بنفس الطريقة التى يحضر بها "الكسكس"، ويضاف إليه الزعتر كما يحلى عند تقديمه بالسكر.

تقدم شديدة السخونة فى الصحن الذى تتمجلس حوله العائلة لابتلاع الطعام بفعل الجوع وعجلة من يسرقهم الوقت. بعد ذلك، يتم توزيع التين على عجل، لن يعودوا قبل الليل ويتم إغلاق المنزل.

تستيقظ ابنة عمى شبحا فى كل صباح مع الأخريات. لديها أيضاً مهمتها، بجوار القرية، يوجد شجرتا زيتون على حافة طريق يسلك كثيراً. عليها أن تسبق المارة. فى المساء، إذا وجدت حليمة ثماراً مسحوقة، تشبه بقع الحبر على الحصى، تتلقى شبحا عقاباً أكيداً.

مازلت أتذكر شبحا المسكينة، تلف رأسها بشال متسخ، خصال شعرها الباهت تشوش عليه الرؤية، تنفخ باستمرار على أصابعها الصغير المتجمدة والمحمرة قليلاً. مهما مسحت أنفها، يظل سائلاً. ترتعش من البرد فى جندورتها ذات الأكمام القصيرة، لكنها تغنى وهى تجمع الزيتون. تسعد عندما تملأ سلتها. ما إن تنتهى مهمتها، تصبح مسئولة عن الحفاظ على المنزل. المنزل مغلق، لكن هناك كومة الخشب الكبيرة فى الباحة، تمضى شبحا باقى اليوم فى الشارع، بين التنقيب عند الجيران واللعب مع البنات الأخرى أو التلاميذ، وبين الالتقاط من هنا وهناك قطعة خبز، أو ملعقة كسكسى، أو بعض التين. عندما تمر طيور الزرزور، لا يجب أن تقف على شجرتى الزيتون، تهرع لإخافتهم بصوتها الخافت، مصدرة صوتاً قوياً بواسطة دلو صغير لا يفارقها. تعمل على قدر ما تستطيع فى الداخل والخارج وتجد أيضاً وقتاً للهو.

من جانبها نجحت حليمة فى نقل نشاطها لعمى لونيس، أراد هو الآخر أن يظهر تفوقه. رأى سكان تيزى الشقيقين يقومان بشكل دورى بالعمل نفسه مثل أيام شبابهما، كان فيما سبق لوحة تعبر عن حب أخوى جميل. أما الآن فالقلوب لم تعد تدق كواحد، إنها لوحة بائسة لأبوين يكدان على أرضهما الصغيرة، كل من جانبه، كل لحسابه، وقادران على أن يقف كل منهما فى وجه الآخر لأن الحياة تسخر من المشاعر.

علمت فيما بعد أن رمضان شعر بألم عندما رأى شقيقه الكبير ذا الأيدى الناعمة والجلباب الأبيض يعمل. لونيس الذى كان من أفضل المتحدثين فى مجلس. كان يتمنى لو استطاع أن يأخذ الأداة من يديه وأن يعيده إلى اجتماعاته. نعم اعترف لى أبى أنه قلم أشجار عمى فى السر، نزع الحشائش من قطعة الأرض تلك أو ذلك، لكنه لم يستطع أن يحل محله تمامًا كما كان فى الماضى. واقع الانفصال كان حقيقيًا، يجب إطعام الأطفال. ليست مسألة يسيرة ولا يسمح فيها بأقل خطأ. كنا نقول لأنفسنا" "كل لنفسه".

عندما لا يحتمل رمضان أن يرى أخاه يصارع إلى جواره، كان يغير مكانه وعمله.

بفضل زوجته وبناته، لم يظهر عمى مرتبكًا أكثر من أخيه. قريبًا، أصبح أكثر انتظامًا فى المجلس واستعاد شيئًا فشيئًا مكانه بوصفه أحد

كبار القرية. اهتمت حليمة بكل شيء. من حين لآخر، قريب أو صديق يعاونهن بيوم عمل. البهائم؟ لم يكن لديهم سوى معزة وخروف العيد. تصنع بناته أوانى من الفخار تبادلها مقابل الشعير، كما تغزلن الصوف الذى يبيعه عمى.

فيما يخص الطعام، فيما عدا عمى، لم تكن حليمة أو بناتها لديهن طلبات خاصة. الخلاصة، لم تكن حسابات زوجة عمى خاطئة. كان لها أن تكون أكثر سعادة من أمى. لونيس الذى يعرفها يتحملها باستسلام وكأنها مرض لا يمكن الشفاء منه. سرقت حليمة العائلة، إنه شيء مثبت. شرعت فى سرقة زوجها. تحجز بشكل منتظم جزءاً مما يدخل المنزل - الحبوب، الزيت، التين والصوف - وتبيعها بسعر منخفض. فى بعض الأحيان، تسرق نقوداً من مدخرات لونيس. تجمع مبلغًا صغيرًا تشترى طرحة لجواهر، منديلا لأم الخير وتترك البائع يسرقها؛ لأنه واثق أنها لن تفضحه. ماذا لم تعطِ لكل العجائز الباحثات عن أزواج؟ تذكر أمهات شباب القرية كل ما أعطته لهن دون أن يطلبن بناتها للزواج؟ وماذا عن الدجالين بتمائمهم العجيبة التى يجب حياكتها فى جانب من الجلباب تحت الإبط أو التى يجب تعليقها فى عود بوص مقابل المسكن المرغوب، كم دُفع لطلاسمهم؟ هكذا صُرفت مدخرات عمى الهزيلة. وعلى الرغم من ذلك لم يتغير شيءٌ. تتقدم بنات عمى فى العمر، فتزداد قبحًا ولا تجدن من يتزوجهن.

خمن عمي كل خدع حليمة؛ لأنه أمر معتاد عندنا. لأنه صريح ومتهور لكم أراد أن يضبط زوجته متلبسة ويخنقها من الغيظ. غير أن نشاط تلك المخلوقة يتضاعف، فتشجعه على الكسل، علاوة على أنها تشبع شهيته. فى نهاية الأمر، تركها على حريتها. بدأ شيئًا فشيئًا يفقد اهتمامه بها وببناتها. صار عجوزًا. كان يعلم منذ ميلاده أنه لن يكون ثريًا. هل هذا ضرورى ليعيش ويموت؟

(١٠)

ليس هناك ما يمكننى إضافته بخصوص عمى لونيس، حليمة وبنات عمى. نعيش جنبًا إلى جنب مثل الجيران العاديين ومع مرور الوقت يتزايد الشعور باللامبالاة بين الجميع. نعلم أن متاعبنا من النوع نفسه، مشاغلنا متماثلة ومواردنا متقاربة. ليس لدينا ما نحقد عليه أو نخفيه. انطفأ الحماس الأول لحليمة وأمى. لا يبقى سوى غيرة عاجزة تجد مواساتها فى تشابه أوضاعنا البائسة.

توارت منافسة ربى الأسرتين تحت تلال المشاكل التى عليهما حلها لإطعام أبنائهما . يمكن تمثيل الشقيقين على هيئة حمارين طاعنين فى السن محملين بكثرة، يتصببان عرقًا على طرقات منطقة القبائل. لنحاول دفعهما على الجرى ليخطى أحدهما الآخر! يسهل استثارة الحمير، يفهمون ما يمكن انتظاره منهم. عادة لا يوجد أفضل من حمار ليدفع حمارًا آخر على الجرى. أما إذا كانوا متقدمين فى السن ومحملين، وإذا كان الطريق وعرًا ، فلا يمكن انتظار شىء. المهم أن يستمر فى السير، هذا هو وضع رمضان ولونيس.

ربما ستتزوج بنات عمى فيما بعد تماماً مثل شقيقاتى. هذا يبدو طبيعيًا. نولد، نتزوج، نموت بالطريقة نفسها. أحيانًا عندما نفكر بجدية فى الأمر، تطفو على السطح أسئلة محرجة. فى أغلب الوقت، تأخذنا الحياة وهذا أفضل.

إجمالاً، تمر طفولتى كمنراد الصغير ابن رمضان وابن أخيه لونيس على نحو عادى وفارغ، مثل كثير من أطفال منطقة القبائل. احتفظت من هذا العمر، على سبيل الذكرى، بلوحة تبدو لى موحدة ومملة، وأستحضرها فى كل مرة دون إحساس بالجمال أو إحساس تعاطف شديد. أتذكر صورتى مرتديًا جلبابًا قديمًا فقد ألوانه بفعل الغسيل الردئ ويعلو رأسى طربوش أطرافه متهدبة وقذرة، كذلك لا أرتدى سروالاً أو حذاءً؛ لأنه فى ذاكرتى أعيش فى صيف دائم. قدمى سوداء بفعل التراب، أظافرى تملؤها القذارة، يدى مبقعة بالفاكهة، يغطى وجهى شرائط طويلة من العرق الجاف، عينى يكسوها الاحمرار وجفنى منتفخ. إذا كان يوم الاستحمام، لن يختلف مظهرى عن المظهر الحالى لفورولو، ولكن بالطبع دون لحية. لم يتغير شكلى الجبين البارز نفسه، الرموش الكثيفة والقصيرة بعض الشىء، العيون بنية اللون والمحجوبة جيداً والتى تداعبك بنظرات حانية وماكرة. لدى حتى الآن عظام الوجه البارزة نفسها، والأنف النحيف الذى أخذته عن أمى والشفاه الرقيقة عن أبى، يعلوان ذقنًا على شكل مثلث. فى الوقت الحالى، عندما أتخيل نفسى بين التلاميذ، أجد صورتى فى صورة التلاميذ الأكثر ضعفًا والأقل اضطرابًا،

هؤلاء الذين يخشون المجهود، يمقتون اللعب ويجدون متعة خبيثة فى تعلم شىء باستمرار.

أفضل ذكرياتى لم أعشها فى منزل عائلة منراد، مثل الغبار، تتراكم ذكرياتى فى عش خالاتى الصغير. أفضل هذه الذكريات للأسف وكذلك الأكثر حزنًا وإيلاما.

أعتقد أنى تمتعت بحظ مذهل لحصولى على خالتين مثل خالتى ونانا. عادة لا يقدر الطفل حنان والديه. بالنسبة له، إنه أمر مسلم به، لا يعيره حتى اهتماماً، يمل منه عندما يتم تدليله. يطمح إلى حنان إضافى: يمهد لإقامة علاقات مع الآخرين، يبحث عن أصدقاء، يريد ناكر الجميل أن يهب قلبه الصغير، كما أنه على استعداد لخيانة والدته، وتفضيل رجل آخر على أبيه شريطة أن يجد شخصاً موثقًا به. ترتطم أمانيه الساذجة بلامبالاة الكبار، فلا يجد سوى الإحباط، مصدر أول مرارة. فى العائلات كبيرة، يصير الأشقاء من الذكور متنافسين. أما الأهل فلا يشغلهم سوى المعركة للحصول على لقمة العيش اليومية والكسوة السنوية. عديدة قلوب الأطفال التى لم تنفتح قط والتى تظل مثقلة بحنان مكتوم.

تمتعت بامتياز نادر ألا وهو دلال والدى، علاوة على ذلك وجدت فى الخارج من يهبنى حنانًا دون ريبة. يكفينى أن أتذكر طفولتى الأولى حتى أعيش مرة أخرى الجو العذب نفسه الذى عرفته عند خالاتى. يشعر قلبى بندم وحزن لا أعرف سر مصدرهما.

كانت نانا متزوجة، عرفت ذلك ما استطعت الفهم. كان زوجها فى فرنسا ويدعى عمر. أحيانًا، تتحدث خالاتى عنه، دائمًا يذكرونه بالسوء، لم تكن خالاتى تحبه قط، ولم تستطع نانا الدفاع عنه. فى ذاكرتى يظل وجه عمر مرتبطًا بوجه والدته. لم أكن أعرفه عندما استأنفت أمه العجوز علاقتها ببنات أحمد. فيما يبدو، كان الفخار يباع جيداً. كانت العجوز ماكرة: ترك عمر نانا بعد بضعة أشهر من الزواج، رحل إلى فرنسا ولايزال هناك، كان به كل العبر، إلا أن العجوز قالت إنها ستأخذ على عاتقها عودته من باريس. لا أحد يرفض أن يقابل زوجه دون أن يفكر فى الأمر مرتين، خاصة أنه لن يوافق أبداً على منحها الطلاق. أنا على يقين أن خالتى لم تستقبل والدة عمر على نحو جيد. لكن ما عسى يمينا الرقيقة أن تفعل؟ إنها تستمع إلى العجوز وبالتأكيد إلى قلبها. كانت شابة، جميلة ومحبوبة، عرفت زوجها ولم تستطع نسيانه.

هكذا دونما أن أفهم لماذا حدث ذلك، وجدتنى أقابل سيدة عجوزاً لا أعرفها تبتسم كثيراً، وعلى أن أتحدث إليها باحترام وإجلال. مازلت أذكر عيون تلك المرأة، عينين نجلاوين وسوداوين، تشعراننى بحرج ما أن تحملق بى، تنزع ثيابك بنظراتها، خشيتها وكرهتها. كان لديها وجه جامد، تمرر خلاله خطوطًا مستقيمة وأنفًا مستقيمًا أيضًا وتجاعيد عرضية وفمًا واسعًا جدا وشفاهًا رقيقة تمطها أحيانًا بالابتسام، ابتسامات كانت تبدو لى قاسية.

في كل مرة كانت ترحل، تعطيها نانا وخالتي عبوة، تخفيها، وهي لاتزال تبتسم، في جلبابها على بطنها. كانت تحوي تلك العبوة بعض التين أو الدقيق أو الشعير.

وبالفعل جاء عمر في يوم ما وأخذ معه نانا الرقيقة. اضطر أن يعود إلى أهله يداه فارغة وقبل وصايتهم دون اعتراض. كان لديه أشقاء وشقيقات. لم يشعروا تجاهه بلامبالاة وحقد. وسرعان ما عانت نانا من هذا الحقد؛ لأن خالتي التي بقيت وحدها لم يكن لديها شيء لتقدمه للعجوز. تخلص أشقاء عمر من كل المهام الصعبة وأعطوها له. اللعنة! كانوا يكدون خلال غياب عمر غير المفيد. كان عمر يلوم نفسه بالتأكيد على أسلوب حياته. قبل بخضوع دور الخادم، مخططًا لمشروع هروب نهائي. أخبر خالتي التي تحملت نصيبها من الأحزان والإهانة.

لا أذكر بالتحديد كم من الوقت استمر كل ذلك، أذكر جيدًا ليلة ربيع أو صيف. تحت ضوء القمر، كنا أنا وخالتي وبابا في الباحة. تقص على خالتي للمرة العشرين قصة سارق القش الذي أراد الله عز وجل أن يفضحه بأن يعلم سيره الليلي على الأرض على شكل درب لبني في السماء. كانت لتلك القصة صيغ مختلفة، فتارة يكون لص بقر حلوب، وتارة يكون طحانًا غير شريف، لكن الفكرة واحدة، الطريق اللبني يعتبر لخالتي لونا دائما على أعمال الليل المشبوهة.

طرق أحدهما بقوة على البوابة، فتحت الباب بابا دون انتظار، دخل عمر ونانا وهما ينهجان. تحمل نانا فوق ظهرها صرة ملابس كبيرة.

كانت بها كل ملابسها الرثة. كان عمر شبه مدفون تحت سجاد ضخم متعدد الألوان، يمسك بيده وسادة يضمها إلى صدره، وبيده الأخرى يمسك فوق كتفه وتحت السجاد الصندوق الصغير ذا الألوان الصاخبة حيث تضع خالتى بعناية تحفها وصابونتها وبعض الأساور والقلائد. أعرف جيداً ذلك الصندوق، إنه الشيء الوحيد الذى لم تسمح لى خالتى باللعب به كما يحلو لى. أخذته معها عندما ذهبت مع عمر. ماذا يعنى هذا الانتقال؟ تحت ضوء القمر الخافت رأيت عين خالتى تتوهج من الفرح وخدودها تكتسب حمرة، فهمت أنها تشاركهم السر، دخلنا جميعًا إلى الداخل، جلسنا إلى جوار بعض تفصلنا الأمتعة المبعثرة. لمرة كنت كلى آذانا مصغية، استحوذ عمر على انتباهى، يمسح جبينه بعباءته الجميلة التى قامت بحياكتها نانا، يشبه وجهه الأسمر والصغير وجه والدته، عيونه السوداء لامعة جداً وفمه أشرم. يتحدث باندفاع، كما لديه طريقة مميزة فى نطق بعض الحروف حتى إننا نضطر إلى تخمين الكلمات تبعًا لمعانى الجمل. كان قصيراً ونحيفًا، أطول بالكاد من نانا. إذا لم أكن أخشاه، فكنت أمقته تمامًا مثل والدته. لكن فى هذه الليلة تحديداً، نجح فى أن يكسب تعاطفى. كان كم عباءته على جبينه عندما رأيته يحنى رأسه فجأة ويخفيها. اهتزت أكتافه، صعد صوت بكاء من حنجرته. تبادلنا النظرات بينما ظل يبكى. استمعنا إليه فى صمت. تجهمت نانا ووضعت يدها على عينيه، رفع رأسه وأرانى وجهًا عبوسًا لا ينم عن أى جمال. لم أكن رأيت رجلاً يبكى من قبل، تخيلت أنه أمر

مستحيل، لم أستطع أن أفهم أن يبكى رجل. شعرت أن عمر لم يعد كبيراً أو قويّا، شعرته قريبًا منى وكأنه زميل أو صديق. وعند رؤية دموع نانا بكيت أنا وبابا.

لم تبكِ خالتى، بل انفجرت غضبًا. هذه هى الفرصة المناسبة التى تستطيع خلالها الإمساك بالعجوز والانتقام منها على كل إهانتها وظلمها ومعاملتها السيئة. ما فائدة البكاء الآن؟

- ابقوا هنا، لدينا مكان فسيح! هل أهلك لا يريدونكما؟ فليكن! ستريهم أنك رجل بفضلنا لن ينقصك شىء.

نعم خالتى كانت قادرة على المواساة. لتثير غيظ العجوز، ستضحى بنفسها لأجل الابن، وبالفعل تحسن عمر واستقر عند خالاتى. قمن بتدليله بألف طريقة، خسرت كثيرا إثر هذا التغيير. أما العجوز، حكت فى القرية بأكملها أن بنات أحمد خطفن ابنها. لم يعد يهدأ غضب أمى، صمت أبى أكثر من أى وقت، أما خالاتى ما إن يتعلق الأمر بعمر صرن عنيفات.

لا أعرف كيف تحديداً وفرن له إمكانيات السفر. عاد فى يوم إلى فرنسا مقرراً أن ينسى كل شىء. ولم نتكلم عنه مرة أخرى، أعتقد أنه مات الآن، الجميع يؤكد ذلك. فيما يخصنى، عن حق أو لا، سأظل ألومه لأنه كان السبب فى أول أحزانى.

تنقص ذكريات الطفولة كثير من الدقة والترابط، نحتفظ ببعض الصور المؤثرة يجمعها القلب الواحدة تلو الأخرى عندما نستحضرها. هنا على سبيل المثال مشهد أستعيده بوضوح تام: أنا وحدى بالمنزل مع والدتى. نحن فى الشتاء والجو الصقيع. فى الموقد، تشتعل النار فى أغصان شجر الزيتون. متكئة على الحائط، تميل قطعة حطب ضخمة نحو النار، يلعقها اللهب بخفة، تصبغها باللون الأسود شيئًا فشيئًا، ثم تلتهمها. مرتعشة، تدخل نانا وتتجه نحونا قرب المنزل، بعدما ثبتته بخيط أحمر سميك، لا تستطيع أن تحتمل حزامًا من الفلانيلة نرتديه فى المعتاد. تقترب بهدوء دون التحدث، تبدو مهمومة. باعدت قدميها المبللة والمحمرة بفعل الصقيع، وقفت تمامًا وسط النار، بعدت اللهب عن أسفل جلبابها.

– هل تشعرين بثقل؟ قالت أمى.

– أشعر بتمزق فى الكلى.

– هل هذا الشهر السابع؟

– لا أحسب منذ عاشوراء. نحن فى الشهر الثامن، قالت نانا.

– بطنك لا يقلقنى.

– نعم ترين، ليس كبيرًا، حتى يمكن القول إننى تناولت وجبة دسمة. لكنى أعلم أنه يؤلمنى.

ابتسمت أمي بالكاد. حتى أنا ما إن نظرت إلى نانا لاحظت وجهها الشاحب، شفتيها المنتفخة، والهالات السوداء حول عينيها. لم تبد وكأنها بصحة جيدة.

– الطفل البكرى لا يتسبب فى نزول البطن، ستربن بعد ذلك ستكونين جميلة كما سبق. ليته يكون صبيا!

– يا أختى، لم تعطنى المثل ببنات الثلاث، أنا أطلب من الله فقط أن يساعدنى على أن أمر من هذا الاختبار. هذا الألم الذى يهاجمنى منذ الأمس يقلقنى كثيراً، جئت لأراكى بسبب ذلك.

– لا تخشى شيئًا ولا تفكرى فى الألم، قالت أمى.

– تراودنى كوابيس. منذ أيام رددوا فى المجلس اسم السيدة التى وضعت تَوأما.

– أنتى بين يدى الله يا صغيرتى، ولم تمسى قط أحداً بسوء، سيجازيك الله بما فعلتى فى هذا الوقت، بالإضافة إلى ذلك، سأكون هنا، سأحضر، اطمئنى.

تحدثن طويلاً أحيانا بكلام مبهم، لم أفهم الكثير. ثم أرتنى نانا بطنها، لم يكن هناك عار أو ضيق فى ذلك، كنت من لحمهن ودمهن، أختلط بهن.

فى شريط ذكرياتى، يلى هذا المشهد مشهد آخر: مساء شتاء، السماء ممطرة، الأزقة موحلة، المزاريب امتلأت، فوالج المياه المتسخة تلتف حول الطرقات، المنازل الصغيرة تظهر أقل حجمًا، فتتعانق على

نحو كئيب، تخبو وتختفى خلف الضباب الذى ينزل عليها قبل هطول الليل. دخلت عند خالاتى، المكان مزدحم. فوق إناء الخزين تركت لحال سبيلها لمبة جاز تشتعل، على الموقد، تحترق قطعة حطب. وقفت بايا أمامى. قلقة، وضعت إصبعها على فمها. أصرت على البقاء، لا لن أخرج. أمى وقد تشنجت شفاهها، تحاول رفع نانا من تحت الإبط لترغمها على السير. تخفى نساء أخريات وجه نانا. إحداهن تحاول معاونة أمى فى محاولتها. خالتى تغلى شيئًا فوق النار وفى إناء قديم، ارتفع الدخان من الإناء وتصاعدت منه رائحة نفاذة. تعطى عجوز أوامر بنبرة مقتضبة ومتسلطة. عينا خالتى الجميلتان تنظر إلى دون أن ترانى. هربت.

- غداً، ستقبل ابن نانا، ألمحت لى تيتى عندما عدت إلى المنزل.

لا أذكر شيئًا آخر، لا أدرى ماذا فعلت بالمنزل أو كيف غلبنا النعاس فى عدم وجود والدتى ولا حتى ماذا حدث خلال الليل.

استيقظت فجأة على صراخ أمى وشقيقاتى: زهقت روح نانا الرقيقة. لن أنسى متى حييت ذلك الصراخ، ولا ذلك الجزع الذى أيقظنى وأخرجنى من فراشى، ولا تلك اللحظة التى عويت فيها من هول الموقف. فى كل مرة أسمع عويل نسائنا على الموتى، أرتعش رغمًا عن إرادتى لأنى أذكر إيقاظى المفزع الذى علمت من خلاله وفاة نانا.

وفتها المنية بعد ليلة آلام بين يدى أختيها اللتين فقدتا عقلهما، وضعت مخلوقًا مسكينًا وباردًا رافقها إلى مثواها الأخير. هذا المخلوق الذى أدى إلى وفاتها المبكرة، ظلت الجثة الصغيرة متشبثة بأمها منذ

أول الليل. نفذت قوى نانا شيئًا فشيئًا، فقدت وعيها فى كل لحظة. ثم صارت هامدة، سمعوا أحشاء ها تتمزق، سال نهر من الدماء مع بقبقة إناء يصب. مع بعض الحظ، لكان مجهود صغير خلصها تمامًا من الثمرة المتلفة. لم يرحم الله خالتى. عملية الميلاد انتهت بالموت، صارعت حتى الصباح ولفظت أنفاسها الأخيرة مع آخر نجم.

ما زلت أذكر نانا ممدة على سجاد عرسها ومغطاة بقماش أبيض، طرحة من الحرير الأصفر ترفع ذقنها وتلتف حول وجهها الصغير. عيناها مغمضة، أنفها مقبض، وجهها أصفر اللون مثل الطرحة. أرى جيداً أنها لا تنام. تبدو وكأنها تنام إلا أن هناك عدة طرق للنوم. هناك النوم الثقيل الذى يلى الإرهاق، الراحة الهادئة التى تصاحب الصحة، والغفوة المؤلمة التى تلازم المرض. الموت شىء آخر. ما أن أسترجع ذكراها الآن، عندما أفكر جيداً بعدما رأيت العديد من الموتى، وجه نانا يخلو من أى انفعال، لا يحمل ملامح ابتسام أو تمرد ولا حتى علامات ألم أو راحة. لا شىء، هذا هو الموت. شخص يلفظ أنفاسه الأخيرة، لا تبحثوا عن شىء يربطه بكم، العباءة التى نعلقها فى مكانه الاعتيادى تذكرنا بالشخص الذى كان يرتديه أكثر مما قد يفعله "جثمانه". ماذا يقول وجه نانا الجميل الذى أحبه الجميع والذى ابتسم للجميع؟ الموت أخذ كل شىء. تركت قناعًا غير مبال وغير متوقع ترفع وكأنه حاجز منيع ترطتم به أحزاننا بلا صدى.

(١١)

بالنسبة للجميع فى القرية، ما حدث لنا ليس سوى أمر عادى. يقتص عادة الموت أشخاصًا فى عمر الزهور. نبكى وننتحب حتى تبح أصواتنا لمدة أسبوع، ثم نردد لأنفسنا أن سنظل على قيد الحياة بعد الفقيد وأن على الرغم من كل شىء يظل الألم بلا علاج؛ لأنه ليس فى مقدور أحد أن يؤثر على مسار القدر الذى لا يحيد أبدًا. وهكذا يمكن احتمال ألم دون علاج.

عاشت أمى معاناة فقد أخيها، شقيقاتها، والدتها ووالدها. تألفت مع الألم والصمت. فى ذلك أنها تشبه أشجار البلوط المتقزمة التى تنمو على أطراف الطريق والتى تصر على البقاء على الرغم من تقلبات الجو، والمعز التى تأكلها كما يحلو لها وبلطة الرعاة الذين يشوهونها بلا شفقة. اعتادت أمى أن تتفاعل بضم شفتيها. تحفظ رابطة جأشها بلا مجهود أو لم تعد تتأثر من كثرة الألم. ستتحمل هذه الضربة مثل ما سبقها وستعاود العيش محاولة تناسى الأمر.

أما بالنسبة لخالتى، الأمر مختلف. لم تكن نانا أختها فقط وإنما كانت جزءًا منها، الجزء الأفضل. منذ بداية المأساة، تسمرت عينى

خالتى بشكل عجيب، تنظر دون أن ترى، تتحرك بشكل آلى، لا تجيب أحداً، لا تبدو أنها تسمع أحداً. فى الصباح، وسط العويل والنحيب، لم تذرف خالتى دمعة واحدة. جالسة إلى جوار المتوفاة، غير مبالية بقدوم وذهاب الزوار واستعدادات الدفن، ظلت ساكنة وكأنها تمثال. أمى التى وجدت أن عليها أن تهتم بكل شىء، تلتفت من حين لآخر لترمق خالتى بنظرات محملة بالخوف. جاءت اللحظة التى صار الجميع للخروج من الحجرة حتى تبدأ المغسلات عملهن، بالرغم من جميع التوسلات، رفضت أن تتحرك. صار غير ممكنٍ أن تستمع إلى صوت العقل. تنظر إلى الأشياء والأشخاص وكأنها فى واد آخر. فى بعض الأحيان تهتز عضلات وجهها، فتهبط وترتفع جفونها بسرعة، ترفع بيدها سريعاً أسفل جلبابها ثم تعود مرة أخرى ساكنة. عندما أتى الشيالون ليحملوا نعش نانا، انهمرت الدموع من عينى خالتى ولكنها كانت دموعًا باردة لا يصاحبها أى انفعال ولا حتى صراخ.

من المعتاد، أن يرافق الأهل الجثمان إلى مثواه الأخير خارج القرية. رافقت أمى، وشقيقاتى، وبنات عمى وكل أفراد عائلة موسى نعش يمينا الطيبة التى ستتوارى تحت تراب مقبرة تيزى الكبيرة، آخذة معها تحت شجرة الزيتون العتيقة والمسكونة بالبوم والأشباح نعومتها، وابتساماتها وذكاء ها. بكتها جميع النساء ذاكرتٍ محاسنها. وإذا كان باستطاعة نانا أن ترى كل هذا الحضور ربما وجدت فى ذلك شيئا من المواساة.

لم تكن خالتى ضمن هذا الجمع. عندما لاحظت أمى وأخواتى غيابها، كان الوقت قد تأخر لإخراجها من بيتها. سكت البوابة ثم الباب. مهما طرقنا، ندينا عليها أو توسلنا لها، بقيت خالتى غير مبالية وكأنه لم يعد هناك شيء يربطها من الآن بعالمنا، وحل الغضب والتمرد محل الشفقة، تمرد لا على خالتى بقلبها المكسور والضعيف ولكن على القدر الذى لن يمتنع عن أخذ ضحية أخرى.

- تعالوا يا أولاد، قالت تلك الكلمات وهى تمسك أيدينا. اتركها لله يا الله، يمكنك أخذها، هى لا تتطلب أكثر من ذلك. ما عسى أن أفعل من قلب مكسور؟ نعم سيكون نصرك سهلاً وبلا استحقاق.

عدنا إلى دارنا وقد تسرب الحزن إلى قلوبنا.

حاول أبى وكذلك أمى وبعض الجارات المتعاطفات التحدث إلى خالتى من خلال الأبواب المغلقة. عند اقتراب الليل، بكت أمى عندما فكرت أن خالتى التى تؤمن بالخرافات ستنام وحدها مع ذكرى الفقيدة. ذهبت للتوسل إليها مرة أخرى، أصغت بإمعان فسمعتها تمشى. فتحدثت إليها بلهجة حادة، ولامتها على قلة إيمانها ورفضها الامتثال لقضاء الله. كذلك لامتها على وحشتها تجاه من بقوا على قيد الحياة وعلى أنانيتها ، ثم حثتها على فتح الباب وعلى تمضية الليلة عندنا أو حتى السماح لنا بالنوم معها. توقفت خالتى عن السير، لم نسمع شيئا، فتركناها.

فى منتصف الليل، بدأت خالتى تتحدث إلى نفسها، هازئة. ثم خبطت بقوة على الأوانى ثم طرقت بقوة على الجرة الكبيرة. سُمعت بعد

ذلك تغنى بأعلى صوتها أى شىء، أناشيد دينية أو أغانى بذيئة، تخلط كلمات فاحشة بمديح الرسول، أو تشيد بجمال فتاة بتول مع نشيد للموتى. لم يعد فى استطاعة الجيران النوم. جاءوا ليحذرونا أن خالتى صارت مجنونة. فى صمت وكمد، انتظرنا حتى الفجر أمام البوابة فى الشارع. ما إن طلع النهار حتى فتحت خالتى الباب ضاحكة بأعلى صوتها.

أسرعنا بالدخول إلى منزلها، يا له من منظر!

الأشياء مبعثرة على الأرض، الأرفف فارغة، عُدة السرير مدمرة. على ضوء النهار الخافت، رأينا فى جميع أركان المنزل أكوامًا غير منظمة من الملابس والأوانى، حتى إناء المياه الكبير قلب وغرقت عتبة الباب بالمياه. الجرة الكبيرة ممدة على جانبها، فرغ نصف محتواها على شكل كومة شعير كبيرة، وسط هذه الفوضى، وقفت خالتى مستقيمة، شعرها يتطاير فوق أكتافها وظهرها. كانت جميلة هكذا، لاحظت أمى ذلك، كذلك النساء الأخريات، غير أنهن فهمن أنها ضائعة، فبكين. هذا هو السوء الذى كانت تخشاه والدتى. مثل اليوم السابق، هرع الجميع إلينا، لم تفرغ الباحة الصغيرة. لم ينته الناس من أحزان بنات أحمد البائسات.

بعض الزوار أكدوا لنا أنها أزمة عابرة. حدثت أشياء مماثلة. على الرغم من ذلك كنا هنا، متشبثين بعضنا بالبعض فى الباحة

وننظر لخالتى، مراقبين أى ذرة ذكاء فى نظرات عينيها، محاولين استشفاف أى نوع من العقلانية من خلال هذيانها البائس.

متعبة بالتأكيد، بسبب رياضتها الليلية، جلست خالتى على عتبة الباب ونظرت بوقاحة إلى القادمين. من حين لآخر، تأتى بضفائرها إلى الأمام وتشرع فى تضفير شعرها الجميل. ثم تجذبه بقوة وترمى كبشة مع تشنج وجهها من الألم؛ لأن ساقيها النحيفتين متباعدتان بشكل يخلو من الحياء، تحاول والدتى مقاربتهما فى وضع يوحى بالحشمة. عندها تتذمر خالتى وتتأفف ثم ترفع أسفل جلبابها حتى البطن، يشيح الرجال نظرهم، ويخرجون وهم يهزون رؤوسهم ويتركون النساء وحدهن مع المجنونة. تخفض خالتى رأسها بخبث، ننظر إليها بإمعان، نرصد جميع تحركاتها. يبدو أنها لاحظت ذلك بفضل بعض البقايا الغامضة للعقل، وكأنها تحضر مقلبا أو أنها تخفى مهمتها الواضحة العينة بشىء من التعمد. بينما يتلألأ الأمل فى عيون والدتى، أخذتنى من يدى واقتربنا من خالتى لإرجاعها لرشدها.

– هذا هو صديقك الصغير، أليس عليه ألا يخشاكى؟

نظرت إلى بعيون شاردة، عيون غريبة ترفض التعرف على، فتارة تتلألأ بلمعة غريبة، وتارة تنطفئ فجأة خلف حجاب يصعب اقتحامه. فتنظر إلى وتخترقنى بنظراتها، ثم تتركنى لتسبح فى الفراغ. ياعيون المجانين المساكين! لن أراها فى أى مكان وقد خلت من الانفعالات. تلك العيون فقط تعبر من عذاب الروح وتبحث ضائعة عن ما فقده العقل والقلب.

لذا فهى تائهة، خائفة، مخيفة، مثيرة للشفقة. لماذا لا يجعل الله ذوى العقول المسلوبة من المكفوفين؟ أعتقد أنه فى هذه الحالة ستصبح معاناتهم أكثر احتمالاً.

ارتعدت من الهلع أمام تلك المرأة التى طالما أحبتنى ودللتنى فى الماضى، التى كانت لى بمثابة ينبوع حنان وأحلام، فقدت رابطة جأشى أمام من علمتنى أن أتحلى بالشجاعة وأن أبكى بشفقة. هل لاحظت أم أن القدر أراد معاقبة جُبنى؟ أمسكتنى خالتى بإحكام وقبلتنى بقوة على خدى، ثم أزاحت رأسها وشرعت فى الضحك بطريقة مجنونة.

فى الوقت الذى علقت النساء على هذه القبلات الحانية، قررت المجنونة عبور الباحة بسرعة البرق والاختفاء عند ناصية الشارع. هرعنا خلفها، كانت تتقدم إلى الأمام بينما يتخبط جلبابها فى كعوبها ويتطاير شعرها على أكتافها. من لاقاها من الصبية أفسح لها الطريق، حاولت سيدة عجوز أن توقف مسيرتها إلا أنها أوقعتها بعنف، جرتنا خلفها خارج القرية. كان الإنذار قد انطلق، فلاحقها أبناء عمومتنا، أمسكوا بها، وأعادوها على الرغم من تشنجاتها وضرباتها، وصراخها وإهانتها لهم.

عادت لا فى المنزل الصغير ولكن فى منزل أهلى. أغلقنا بوابتنا وبقينا وحدنا معها. يتطاير من عينيها شرر، يتألق وجهها بعد نفخة عليل الصباح. بدت وكأنها تذرينا، أو كأنها تنذرنا بانتقامها مثل عدو لدود. لم تخفض عينيها خاضعة غير أمام وجه أبى المكفهر. لذا رغبنا فى أن

تظل بالمنزل؛ لأننا بدأنا نخشى عواقب تصرفاتها، على الرغم من ذلك، كان على والدى الخروج ليقضى مشاويره. فى هذه الحالات، تصرخ خالتى من السعادة، ما زلت أذكر أحد المشاهد، كانت مرتكزة على الحائط بجوار المطحنة، كنت أقف بعيداً فى مواجهة الباب وعلى الاستعداد للاختفاء. يبدو أن تيتى لاحظت مزايا المكان الذى أقف فيه فأرادت أن تعبر المنزل وتأتى إلى جوارى. بينما تمر من أمام خالتى، أمسكتها الأخيرة بقوة من شعرها.

- تعالى يا بنيتى، لا تخشى خالتك!

سقطت تيتى على الأرض وقد أطلقت صرخة رعب، خرجت من المنزل وخلفى بايا. تدخلت أمى فى الاشتباك، فأمسكت شعرها هى الأخرى. استدعى صراخنا حليمة ومعها بناتها وبعض الجيران، نجحن جميعًا فى التحكم بخالتى وراقبنها جميعًا حتى عودة أبى.

أيام حزينة قد أمضيها. مصير خالتى أنسانا نانا المسكينة التى دفنت للتو. الآن، صارت لدينا مشكلة كبيرة، ماذا نفعل بخالتى؟ لم يكن لدينا سوى منزل واحد فأين ستقيم؟ أو بالأحرى أين سنبقيها حبيسة؟ لأن علينا حبسها لنمنعها من إيذاء الآخرين أو من الهرب؟ أكثر ما يقلق والدى هو الهرب. سمعته يتحدث إلى أقاربنا، كانوا يخشون السوء إذا هربت. لا أحد يعلم! كانت شابة ومن الممكن أن تذهب إلى بلد غريب لتجلب لنا العار. هل الغرب قد يستثنون سيدة مجنونة؟ الفضيحة ستظل

لصيقة بالعائلة، كما أن خالتى تشكل خطراً بالمنزل على الأطفال لأنها تثور مثل البركان. وكيف سيظل الكبار إلى جوارها طوال الوقت؟ الحل الوحيد هو ربط قدميها حتى تشفى أو تصبح أكثر وداعة.

منذ اليوم التالى، ذهب والدى إلى الحقل تاركنى وتيتى مع خالتى. كانت قدماها موثقة جيداً بحبل من شعر المعز يرتفع إلى وسطها ويربطها بأحد أعمدة السندرة. فى هذا الوضع، كانت غير مؤذية لكنها مثيرة للشفقة، حتى بالنسبة لنا كأطفال. أتذكر أن أختى لم تستطع النظر إليها دون البكاء، كما كنا نرفض أن نلهو بالخارج ونتركها وحدها لدقيقة حتى عودة والدتى وبابا.

فى الليل أنام فى السندرة مع شقيقاتى. فك أبى وثاق خالتى وأمرها أن تأكل. تحدث إليها بنبرة سلطوية. بدا الاثنان مرعبين، يتباريان بالنظرات. شرعت خالتى فى الصراخ، تركها تفعل ما يحلو لها. فى لحظة رأيناها تمسك طبق الكسكسى وتلتهمه بيدها وبشراهة، سقطت الملعقة عند قدميها. وفى غفلة من الوقت، فرغ الطبق وقبل أن يتدخل أبى قذفته على الباب، فسقط مكسوراً.

شعرت أمى بالأسف، غير أن كل شىء كان يبدأ من جديد. لم تكن لدينا القدرة على استقبال مجنونة وعلى تحمل جميع نزواتها. كان القدر قاسيًا على أهلى. أولاً كان عليهم أن يظلوا يقظين طوال الليل بالتبادل حتى يلاحظوا خالتى عن قرب، فهى قادرة على جلب المصائب مثل إحراق المنزل، قلب جرة الزيت، خنق الخروف أو ببساطة ابن أختها.

وما إن تصبح يدى خالتى فارغة، فكانت تقطع جلابيبها، تريد أن ترتدى ملابس رثة. سرعان ما أفقرت أختها ما إن قطعت الجلابيب الموروثة عن نانا، لم يتبق لها شىء ولم يكن فى مقدور والدى شراء ملابس جديدة لها. أخيراً، خالتى التى كانت شديدة النظافة صارت تخشى الماء مثل النار، ترفض تسريح شعرها وتقضى حاجاتها فى مكانها. لم يكن منزلنا غير نظيف سوى فى تلك الأيام. ومن الغريب أنها كانت تلتهم كل ما يقع تحت طائلة يدها وبدت أفضل صحة من الماضى. سمنت، دبت الحيوية فى وجهها وأصبح صوتها رننا. أصبحت كالحيوان ولم يرجع لها رشدها. على النقيض، تهالكت والدتى وبدأت تفقد وزنها، شعر الجيران نحوها بالشفقة، إلا أن الشفقة لم تساعدنا. أوقفنا البكاء على مصير خالتى، لأننا لم نلم أحدا سواها. كنا نتمنى مخرجاً بأى طريقة.

أتذكر أنه فى وقت ما صارت خالتى أكثر وداعة، كانت هكذا وهنة وخائرة القوى، فلم نكن نربطها. تجلس منذ الصباح على مقعد من الحجر قرب الباب، وتمضى عليه اليوم بأكمله. تستغرق فى أحلام بلا نهاية، بينما يتدفأ القمل الذى سرح على ملابسها الرثة على شمس الشتاء العذبة. لا يجب التحدث إليها أو حتى لمسها. تقول أمى إن السبب فى ذلك هو اكتمال القمر، تخشى عودة نوبات الغضب مع ربع القمر الأخير ومع الهلال. أما جاراتنا، يدعين أن الأشباح تلقن خالتى أسرار الساحرات وأنها قريباً ستستطيع قراءة الطالع وستكسب أموالاً كثيرة لتوافر الطعام ببزخ للعائلة بأكملها.

على أن أعترف أن أبى كان يسمع ببعض السعادة مثل هذه الافتراضات نظراً لصعوبة العيش. أما أمى فكانت تثور لفكرة استغلال تلك المأساة. لم ترد أن تصبح إحدى بنات أحمد من الساحرات، كانت تفضل الفقر على ذلك أو حتى موت المجنونة. ما كانت تتمناه هو أن تُأخذ أختها عند سحرة مشهورين فى منطقة "الزوايا" لتطرد الأرواح الشريرة من جسد خالتى. إلى جانب أنها لم تؤمن كثيراً بقوة الشيوخ، لم يكن من اليسير أن يسافر أبى برفقة مجنونة شابة. فكان ذلك يتطلب منه أموالاً، دابة، مرافقين، علاوة على تعليق عمله وترك حقله وبيته وقبول فكرة المخاطر غير المتوقعة وعدم الاعتماد على الشفاء.

ما أن اطمأنت عائلة منراد لوضع خالتى الجديد، حتى استأنفوا حياتهم الطبيعية. وسط مشاغلهم ومتاعبهم، ينسى أهلى المجنونة ولا يفكرون فيها إلا عندما يرونها أمامهم بالمنزل. مع الوقت أصبحت فماً جديداً عليهم إطعامه، لم يعد أحد يأمل شفاءها ولم يعد يراقبها. بدأت خالتى فى الخروج وحدها أو فى زيارة إحدى الجارات. فى المعتاد، تفتح بالصدفة بوابة منزل، وتقف على عتبته دون أن تتفوه بكلمة. حاولت النساء التحدث إليها ولكن بلا فائدة. إذا أعطينها شيئًا تمد يدها بلامبالاة ونظرة عينيها تائهة.

ذات مساء، بعد عودتهم من الحقل، لم يجد أبى وفاطمة وبايا خالتى بالمنزل. تيتى التى أمضت اليوم بأكمله فى الباحة حاملة على ظهرها زازو الصغيرة رأت خالتى تخرج بعد لحظات من رحيل أهلى،

أما أنا فقد حاولت أن أستوقفها عندما مرت من أمام المدرسة فى الساعة العاشرة. قالت لى:

- اتركنى لأرى أختى.

غمرت الدموع عيون أمى ما إن سمعت تلك القصة منى. كانت هذه أول مرة تتحدث خالتى عن المتوفاة، هل كان ذلك من علامات الشفاء؟ ولأن المقبرة تقع بالقرب من المدرسة، شيعنى أبى ومعى تيتى أملاً فى أن نجد خالتى على مقبرة نانا. كانت مقتنعة بتلك النظرية، إلا أن المقبرة كانت خاوية، قررنا التفتيش عنها فى الحى، لم نجد يئا كذلك. بعد ساعة من البحث، علم أبى من أحد الرعاة أن خالتى ذهبت إلى "أمالو".

"أمالو" هو حقل الزيتون والتين الذى تركه أحمد إلى بناته الثلاث. إنها قطعة أرض صغيرة تقع فى قاع واد ناء يتخلله تيار هواء عنيف، سطحه غير مستو، كثير الحصاة وضيق. يربط القرية بأمالو طريق ضيق ومتعرج على جانبيه عُليق وشجيرات القد الصغيرة. يحتاج نصف ساعة لنزوله وأكثر من ساعة لصعوده. كنا فى شهر مارس وقد بدأ الليل فى الزحف. متعبة من يوم عمل شاق، لم يكن لأبى الشجاعة لينزل أمالو حتى يعيد المجنونة. كما أنها أصبحت الآن وديعة. تخيلنا أنها ستمضى الليلة فى الكوخ الصغير الذى يغطيه القش والذى يقع فى زاويا من الأرض، وحيث اعتادت بنات أحمد أن يخزن الأعلاف قبل بيعها. لأن خالتى تعرف كل ركن من الأرض، قالت أمى إن أختها ستنام تلقائيًا فى

الكوخ. كما أن ليلة تحت السماء ووسط الخضرة قد تنعش ذاكرة المجنونة، هل ستعود المتاعب؟ عم المنزل بعض الضيق والضجر، إلا أننا لم نقلق أكثر من ذلك.

خلال الليل، تغير الطقس كما ما هو معتاد فى مارس. هطلت الأمطار، تنهال الأمطار بعنف على أسطح المنازل، يعزف الريح لحنا كئيبًا فى الأزقة ويتخلل الأبواب، أخذت أمى تفكر فى أختها، حاول أبى تهدئتها إلا أن إحساسا مخيفا بدأ يراودها. بعد أن سئم من سماعها وقلق بما يكفى، نهض أبى، ارتدى ملابسه وخرج. سمعناه ينادى أخاه واتفق معه، أيقظوا بعض أبناء عمومتهم ثم عادوا إلى منزلنا ليتشاوروا. كانوا خمسة أو ستة أشخاص. ينتعلون صنادلهم من الجلد واتشحوا ببرانسهم مغطين رؤوسهم بالقلنسوة بعد أن ربطه خلف أعناقهم، تزودوا بالهراوات ليتبنوا طريقهم فى العتمة. غير أن الأمطار ازدادت ضراوة وفى لحظة خروجهم سقطت القطرات الضخمة مثل عاصفة من حبات البَرَد. غاصوا فى ظلمة الليل، تاركين قلقين. هم أنفسهم رحلوا حزينين وصامتين، يتحسسون طريقهم فى البرك الطينية واحد تلو الآخر وكأنهم أشباح. أسفل التل حيث تقع القرية، كان بإمكانهم سماع ريح أمالو الغاضبة والمدوية.

فى الصباح، عندما استيقظت وجدت برنس والدى معلقا على شماعة مثبتة على الحائط قرب الباب، كان البرنس مبللا ومتسخا، تتساقط منه قطرات المياه على العتبة. متدثرًا بغطائه، يغط أبى فى النوم

في مكانه المعتاد. اكتسبت عيني أمي الحمرة. لم نجد خالتي. كُتب علينا ألا نراها مرة أخرى، كما ظل لغز اختفائها غير معلوم للعائلة بأسرها.

فيما يخصني، أعتقد أنها ماتت بعد أن جرفتها الريح غير الرحيمة التي تمر قرب الكوخ. أحيانًا يلقي نهر "سبَعو" وكذلك الترع المتفرعة منه، في سهل في تيزي أوزو، على شواطئها الفسيحة والمتراخية، ببعض الجثث المتورمة ذات البطون المنتفخة مثل الكرة، وقد كسا اللون الأزرق الأجساد، في حين صارت الجفون سوداء، والشفاه متضخمة واللسان متورما يخرج نصفه من ركن في الفم. هل خالتي لفظت بهذه الطريقة من النهر؟ لم نعرف ذلك قط. عندما نجد موتى هكذا، تتدارك الأخبار من قرية لأخرى، يذهب أناس ليتعرفوا على الجثة ويعودون بها إلى ديارهم، تقام الشعائر المعتادة على روح المتوفي. فيما عدا ذلك الله وحده يعلم كيف دفن ولا تسمع العائلة شيئًا عن الشخص المختفي.

هذا ما حدث لنا. لا أثر لخالتي على الرغم من أسبوع من البحث. لم يعد حتى من المؤكد أنها ذهبت إلى الحقل ولم يعد الراعي يؤكد شيئًا بعد ما أيدت النساء رواية أخرى، لم أكن أكذب عندما نقلت أقوال خالتي لما مرت من أمام المدرسة، استنتجوا أن المجنونة، مثل أحد قديسات الإنجيل، رحلت من عالم الأحياء؛ لتلحق بأختها العزيزة بطرق دنيوية وكأنها غيرت مكان إقامتها. لم يصدق من يتحلون بالرزانة تلك الرواية، تأوهت أمي من ألمها وبكت الموت الذي أخذ أختها.

إذا قلنا إننا بكينا كثيراً وفاة خالتى سنكون قد بالغنا ذلك لعدة سباب، فمنذ وفاة نانا والمنزل فى حالة حداد مستمر، دون احتساب كل المتاعب التى تعرضنا لها. فيما عدا بعض الحزن والشفقة، كنا تعبنا من هذه الأوضاع ونرغب بشدة فى بعض السعادة. لم يشعر بمرارة هذا الفقد سوى أمى حيث قالت إنها رأت سقوط آخر غصن فى شجرة العائلة، غصن ضعيف لشجرة جافة، وأنها أصبحت وحيدة ولم يعد لديها ملاذ سوى سقف زوجها ولم يعد لديها حنان سوى حب أبنائها. أحياناً، كانت تلوم نفسها على أنها أهملت أختها.

نحن الصغار فهمنا على الفور أننا فقدنا شيئًا: باع أبى منزل خالاتى المتواضع لأحد الجيران الذى أقام فى الحال سورا. لم نبال بالحقل الكئيب، أبناء عمومتنا من عائلة موسى قاموا ببيعه وتقاسموا ثمنه. لم يعد لدينا مأوانا الآمن، عشنا العزيز. فيما عدا والدينا، لم يعد هناك من يحبنا أو يهتم لأمرنا، لم يبق سوى أن نلتف خائفين حول الأب والأم.

الابـن البِـكْـر

اليوم الفقر المدقع الذى يتحمله قومى بكل زهو ونُبل يصنع عظمتى. فيما سبق، كان بمثابة عار لى وكنت أخفيه قدر استطاعتى. احترام إنسانى فظيع!

ميشليه

تلك كانت نبذة الاعترافات التي يمكنُ لأى شخص أن يقرأها في كشكول منراد فوررولو. الراوى الذى على علم بالقصة والذى يعرض ذلك على القارئ يأخذ على عاتقه أن يكملها حتى النهاية. هل علينا أن نكرر أن فوررولو يصمت خجلاً أو حياء، وأنه يعطى القلم لصديق لن يخونه ولا يجهل شيئًا عن قصته، أخ فضولى وثرثار لا تشوبه ذرة لؤم، أخ من الممكن الغفران له عندما يبتسم؟

عندما سيقال كل شيء عنك، لن تكون، يا فوررولو، على قيد الحياة لأن الحياة ليست - حقًا - رحلة طويلة. هل سيعرف أبناؤك وأحفادك كم عانيت؟ نعم سيعرفون، وليعرفوا، لكن سيكون عليهم أن يعانوا بدورهم، أن يحبوا وأن يكافحوا. ما الدرس الواجب إعطاؤه لهم. "درس؟ لا يوجد دروس؟" هكذا تهمس إلينا. أرى نظرتك العذبة والمستكينة، ترغب في إسكات الراوى، لا، اتركه ليعمل، ليس لديه أوهام كثيرة إلا أنه يحبك. سيحكى حياتك التى تشبه حياوات عديدةً، مع اختلاف أنك طموح وأنك نجحت فى أن تعلو وقد يغويك بعض الشيء أن تزدرى الآخرين، هؤلاء الذين لم يستطيعوا.

ستكون على خطأ فى هذه الحالة يا فوررولو إنك لست حالة خاصة، والدرس هؤلاء الناس هم من يعطونه.

(١)

فى العام الذى توفيت فيه خالاته وفى الوقت الذى بحثوا عن بعض السعادة، رُزق فورولو بشقيق لُقب بداردار، ميلاد هذا الشقيق أيقظ غل حليمة.

بعد أن فقد فورولو لقب الذكر الوحيد اكتسب لقب الشقيق البكر. شرحوا له أن هذه الصفة ستوجب بعض الواجبات فى المستقبل عندما يشب الصغير، أما فى الوقت الحالى فسيستمتع بكثير من المزايا. بداية، حصل على نصيبه من كل الأشياء الجيدة مثل البيض واللحم والكعك التى تناولته والدته فى فترة النفاث. فيما بعد، يحصل الصغير على نصيب رمزى من كل الطعام، يتظاهرون بأنهم يعطون كل شىء للصغير، فتمد أيديهم نحو فورولو الذى يحصل على نصيب مضاعف مقارنة بالآخرين. لم يكن لدى شقيقاته ما يقولونه، من حق الشقيق أن يترك نصيبه لشقيقه الكبير. بئس لهن إذا لم يكن سوى فتيات. هذه هى عائلة منراد بأسرها: سبعة أشخاص. شخص واحد يكسب ويأتى بالمال، الأب. إنه يعمل مثل الجن، لا يضيع أى يوم، لا يسمح لنفسه أو حتى لغيره بأى شكل من الرغد. يرتعد عند قدوم الأعياد التى تلتهم الملاليم،

ويشعر بالذعر عند قدوم الشتاء الذى ينهى على المؤن. يشب فورولو، شقيقه وشقيقاته كما يستطيعون. كما أنهم أمضوا فترة هادئة لم يحفظ منها فورولو سوى ذكرى غير واضحة. لا يذكر بكل دقة سوى اللحظات البائسة فى طفولته.

كان فى الحادية عشرة من عمره، عندما سقط أبوه من شدة الإرهاق ومرض بشدة. أمضى رمضان الليالى السابقة فى الحقل ليراقب التين المجفف. ذات صباح عاد إلى المنزل وقد غاصت عيناه فى الحدقتين، جسده محموم، شفتاه شاحبة. سقط صارخًا على شوال أوراق شجر الزيتون الذى حمله بصعوبة على ظهره. سريعًا، أحضرنا فرشته، وغطاء، ومخدة مستديرة ومسطحة. رقد ورفض تناول الطعام، لا يزال يصرخ. اعتقدت زوجته أنه أمر بسيط، تسأل الفتيات إذا كان عليهن البكاء. ظل فورولو غير مبال، طالما أن الأمر لا يخصه. علاوة على ذلك والده قوى ويستطيع تحمل المرض.

قالت الأم: هل تعلم أنه لن يبقى طعام للجاموس فى الليل؟ هل لا تستطيع حقًا ملأ شوال لليل؟

– لا إنى مريض، اذهبى إلى الحقل مع أبنائك. اصعدوا على شجرة الزيتون التى تقع فى المنتصف، الأكثر مرونة والأسهل. كنت أود أن أحفظه للآخر، لكن بما أن الوضع تأزم فاذهبوا، لا تأخذوا معكم فورولو حتى يسقى البهائم، أريد أن أنام فليلعب الأطفال بالخارج.

فى المساء عادت الأم وحاصرته.

– ألست أفضل حالاً، لو اتكأت على عصا، هل تستطيع الذهاب لحراسة حقول التين، يكفى أن يراك الناس وأن تمر، وجودك سيبعد اللصوص.

– نادِ على أخى، سيحل محلى هذه الليلة. قولى له أن يأتى، شيعى الصغير، أعطينى شربة ماء.

– هل تريدنى أن أضغط بيدى على المناطق التى تألمك؟

– لا! فكل جسدى يؤلمنى.

– هل ترغب فى عنقود عنب؟ هل تريد بعض الكسكسى مع لبن رايب؟ سيوقظك!

لم يعد رمضان يجيب، أغلق عينيه، لم يفتحهما إلا لاستقبال شقيقه. لاحظ لونيس هو الآخر أنه ليس به سوء. سيذهب لينام بالحقل، لكن فى اليوم التالى، منذ الصباح الباكر سيسافر لمدة أسبوع.

فى الليل، بدأ المريض فى الهذيان وفى قول أشياء غير متماسكة، تحدث إلى والدته المتوفاة، اختنق، تهيأ له أشخاص غير معروفين وغير مرئيين يهددونه على حسب قوله. لم تغمض للزوجة عين. استيقظ الأبناء، ظلوا صامتين وخائفين.

قالت الأم: والدكم يحارب الجن منذ ساعة.

توارى فورولو، يأمل فى ألا يلاحظ الجن وجوده، لقد أرقدوا والده يبدو أنهم يتمتعون بقوى خارقة!

فى اليوم التالى، على الرغم من أنه ينام عادة مثل السكارى استيقظ دون صعوبة مع طلوع الشمس ليصطحب شقيقته بايا إلى الحقل. عليهما أن يخرجا من الخُص التين ليجف، جمع التين الذى سقط من الأشجار، رعاية الغنم وإحضار أوراق شجر الزيتون التى جمعها العم على ضوء القمر. عند عودته إلى المنزل يعلم أن عليه أن يسقى البهائم من الحوض، وفى فترة بعد الظهيرة، سيعود للحقل ليدخل التين إلى داخل الخُص، يملأ الحقيبة لأجل الحيوانات ويبحث بين الشجيرات على خشب لأجل الموقد. ظن أن أباه سيسعد لذلك.

فى المنزل، وجد شيخا هرما يكتب تميمة. هدأ الأب، أيقظ الشيخ المريض ليطرح عليه الأسئلة، أجاب رمضان بعقلانية على الأسئلة، غير أن الشيخ اكتشف معانى سرية فى هذه العبارات. طبقًا له، من الواضح أنه تم إزعاج الجن أثناء الليل، قرب مصدر ماء، ليس ببعيد من المكان الذى تجف فيه الفاكهة ويبدو أن الجن لبس جسد المريض؛ لأنه لم يحتط بتلاوة العبارات المعتادة لإبعاد الشياطين. لذا فالمريض هو من أخطأ. لطرد الجن، يجب الآن ذبح كبش وتعطير أسفل بطن المريض بورقة دُفلى مكتوب على وجهيها. سيتم تكرار تلك العملية ثلاث مرات. لتجنب الارتباك، يرسم الشيخ على أوراق الدفلى الثلاث، خطا أو خطين أو ثلاثة خطوط. يخشى فورولو الجن مثل خشيته للموت، يخشى إغضابهم ولو قليلا.

غير أنه يتذكر بقوة قصة رواها معلمه، فعندما طلبت والدته العجوز إحضار تميمة لها، أتى بورقة وكتب عليها نص "الجراد والنملة"[٩] ثم طبقها جيداً. ليظهر صلابة عقله وأنه ليترك الشيخ الذى أخذ منهم عشرة فرنكات يستغفله. روى لشقيقاته القصة وأضاف أن نص "الجراد والنملة" شفى العجوز تماماً مثل التميمة. لكن ليقوم بعمل هذا النقد اللاذع، عليه أن ينتظر رحيل الشيخ وشفاء الأب، فلا أحد يدرى ما قد يحدث. عندما يفتح الأب عينيه، من يقول إنهم ليسوا الجن الذى يسكنه، ينظرون إليك، يراقبونك، وقد يغيرون فجأة مسكنهم. فى مثل هذه الأوقات، مهما قال المعلم، يفضل فورولو الابتعاد.

يبدو أنه كان يخشى ذلك دون سبب؛ لأن الجن لم يترك جسد الضحية، جاء شيخ ثان وثالث بلا فائدة. فى لحظات الجلاء، يقول الأب إنه غير "مسكون" لكن ما إن يعود الهذيان يصعب تصديقه.

عاد أخيراً شقيقه لونيس من السفر وتعجب أنه وجده متعباً أكثر من ذى قبل. المسألة كانت خطيرة ولأن المصائب لا تأتى فرادى، فقد كسر باب الخُص فى إحدى الليالى، عندما لم يجدوا أحداً يحرسه، دُمرت التعريشة وسُرق جزء كبير من التين، بدأ لونيس فى إدارة المنزل، اتفق مع مالك البهائم على بيعها؛ لأننا لم يكن فى استطاعتنا رعايتها، استُخدم المكسب فى علاج المريض، غير أن المال لم يكف طويلاً، كنا

---

(٩) نص "الجراد والنملة" عمل أدبى مميز للكاتب الفرنسى لافونتين.

نحتـاج إلى دقيق ولحم مـرة كل أسبـوع، ذبح كـبش آخـر ومن بين مـرة وأخرى دجاجة. اقتراب العيد، فتم شراء جلابيب جديدة للأطفال. بيع الحمار والخروف. نعم، أفلس رمضـان المسكين حتى قبل أن يبدأ فتـرة النقاهة. لونيس لينقذ أخاه، صرف دون حساب ودون فائدة. يأتى باللحم فيـأكله الصـغار، يأتون بالقهوة فـلا يشرب المريض سوى قدح. عندما استطاع رمضان أخيرًا أن يأكل، لم يجد مؤنا ولا حتى أموالا. فاضطر أن يستدين بفائدة قدرها خمسون بالمائة ليستعيد قواه وليطعم عائلته. كان ذلك فى فصل الشتاء، اضطر أن يستدين حتى الربيع.

لما استعاد عافيته تمامًا مع حلول شهور الربيع، استطاع أن يقدر مذعورًا عمق الهاوية التى انزلق فيها خلال مرضه. حاصره الفقر المدقع، لأول مرة منذ اقتسام الإرث، توجه الأب بينما يتمزق قلبه كمدًا، إلى كاتب عدل ليبصم على وثيقـة اعـتراف بدين، رهن حقله وبيته. فى ذلك اليوم، أحد أيام السوق، إذا كانت ذاكرة فورولو جيدة، اشترى الأب محاولاً التغلب على أحزانه قطعا من أمعاء البهائم. بدا مذاقها مرًا للجميع.

فيما بعد، تاركًا عائلته فى رعاية شقيقه، رحل رمضـان ذات صباح ليذهب للعمل فى فرنسا. كان ذلك الطريق الوحيد، الأمل الأخير والحل الوحيد. عرف أنه إذا بقى ببلده سيتحول الدين إلى كرة ثلج هائلة وستبتلع، وكأنها انهيار جليدى، الإرث العائلى المتواضع.

(٢)

في الليلة التي تسبق رحيله، لم يشك أحد من أولاده. لكن القدر أراد أن يستيقظ فورولو أثناء الليل، لم يكن أبوه نائمًا بل كان يصلى فى الظلام. يصلى بصوت عال طالبا من الله عز وجل أن يرحمه، وأن يعاونه وأن يزيل العوائق مِن طريقه، وألا يتخلى عنه. ثم فى شدة يأسه، دعاه بأن يرعى أبناءه. فى صمت الليل، كانت نبرته حادة وعميقة. يعقب كل طلب اعترافٌ مؤلم، وصف رمضان مدى ارتباكه وبؤسه. شعر فورولو أن هناك وجودا خارقا يطير فوقهم ويسمع كل شىء. شعر بالحيرة. يكفيه أن يمد ذراعه حتى يلمس أباه لأنه ينام دائمًا إلى جواره. غير أنه حبس أنفاسه ولم يحرك ساكنًا. تسائل عن ما يحدث. ألم والد أضنته وسالت فى صمت الدموع على خديه.

طوال الصلاة، لم يغمض له جفن، حاول أن يعرف ما المصيبة الجديدة التى حلت بالعائلة. بما أنه لم يستطع أن يستشف شيئًا، فقال إنه على الأرجح يصلى كل الآباء هكذا عندما تكون عائلتهم غارقة فى المتاعب وهذا بالتحديد وضع عائلة منراد، إنه على يقين من ذلك. فدعا من كل قلبه لتتعانق صلاته مع صلاة أبيه، ثم غفى دون أن يدرى.

في اليوم التالى، استيقظ الأخير كعادته، فوجد أمه وشقيقته تبكيان. رحل الأب فى الفجر، وحتى لا يزيد من أحزانه، فضل أن يرحل دون إخبارهم ولا حتى تقبيل أحد. كان قد أعاد للتو إلى صديق جلبابه وبرنسه. سافر مرتدياً سترةً وسروالاً على الطريقة الفرنسية، كان قد أعطاه إياهم قريب وتم خلال الأسبوع الماضى رفلهم بعناية.

تذكر ما سمعه فورولو أثناء الليل، قالت له والدته وقد ارتسمت ابتسامة باهتة على وجهها إنها سمعت الدعاء نفسه. أظهرت رضاء جلياً لما علمت أن ابنها لم يغمض له جفن. شعرت الفتيات بخزى بسبب تصرفهن. هل لا تحب والدهن؛ لأنهن لم يستيقظن؟

– لا، فكر فورولو! هذا يثبت أن أمى لا تستطيع الاعتماد عليهن مثلى أثناء غياب والدى.

منعه ذلك التفكير أن يبكى مثل شقيقاته. حاول أن يطيب خاطرهن بعض الشىء، ثم توجه إلى المدرسة، إلا أنه من حين لآخر، يشعر بانقباض فى أمعائه ثم صدره، إلى أن صعد هذا الانقباض إلى حلقه.

بعد اثنين وعشرين يوماً، جاء أول خطاب. سلمه لهم أمين القرية، لم يجرؤ أحد على فتحه قبل الساعة الرابعة، أثناء غياب فورولو بالمدرسة. أخذ الرسالة من يد بابا وقبل المظروف. التف الجميع حوله، شقيقه الصغير داردار جذبه من جلبابه وقال له: "أسرع، أرنى أبى!" تردد، كان فى الصف الرابع، لكن قراءة خطاب أمر ليس بيسير. ليشعر ببعض الثقة،

أحضر طالبا تخرج من المدرسة بعد أن حصل على الشهادة. لم يتردد الأخير، بل جاء وفتح الخطاب بيد واثقة وشرع فى الترجمة. كل ما قرأ جزءاً وقام بترجمته، لاحظ فورولو أن يستطيع أن يفعل بالمثل. تلألأت عيناه من السعادة، لم يكن سوى عبارة واحدة لم يفهمها جيداً "لا داعى أن تكدروا أنفسكم".

الأب فى أفضل صحة ويدعو لأبنائه بالمثل، يعمل ولن يتأخر فى تشييع المال، طلب من أبنائه أن يتحلوا بالأدب وأن يطيعوا والدتهن. لا يجب أن يأخذوا المعزة فى حقل الزيتون حيث توجد نباتات مطعمة حديثاً، لا يجب أن ينسوا أن يعلقوا فى الوقت المناسب الذكور إلى شجر التين. يزخر الخطاب بالتعليمات، فالأب يعطى أوامره وكأنه موجود. كل شىء؛ متى سيتم اقتلاع أوراق زيتون ما، متى سيتم رى شجرة تين مع بداية الحر، العشب الذى يأتى من مكان ما سوف يخصص لأية معزة والعشب الذى يأتى من مكان آخر سوف يخصص للبيع. ثم تلت تلك التعليمات أسئلة متعددة على المؤن بالمنزل، على الجيران وعلى العم. أنهى خطابه بعد أن سلم على كل شخص باسمه وكذلك سلام الكاتب الذى يكتب الخطاب الذى أملاه له رمضان.

غمرت السعادة الجميع، العائلة بأكملها وقد التفت حول طالبين رأت الأب من خلال خطاب. أجابوا على الفور، انحنى الطالب تحت نظر فورولو، وضع ورقة بيضاء على كتاب قراءة ثم أمسك بالريشة بينما يمسك فورولو بالحبر.

لم يجرؤ فورولو على كتابة أول خطاب، يعرف أن هناك صيغة معينة ولم يكن يعرفها. أقسم سرّاً أن يحفظها وألا يلجأ لأحد في مراسلته. تعلم كيف ينهي خطابًا بصيغ على شاكلة "ألف سلام"، "ابنك الحبيب" و"برجاء موافاتنا سريعًا بالرد". لم تسمح له غيرته بأن يشكر زميله بحرارة، علاوة على ذلك، أشار إلى خطأين في الإملاء بكل صراحة. في اليوم التالي، أخذ الخطاب إلى المدرسة حيث سيتم تسليمه إلى البوسطجي. تعجب المعلم أنه لم يجد خط تلميذه على المظروف، بل قال له إنه اعتقده قادرًا على الكتابة لوالده. بعد خمسة عشر يومًا، قدم فورولو خطابًا ثانيًا إلى المعلم. على المظروف رسم فورولو بعناية عنوان الأب وكأنها عينة من أفضل خط لديه: "منراد رمضان، ٢٣ شارع الجوت دور، باريس، الحي الثامن عشر".

ألقى المعلم نظرة وفطن أن فورولو ينتظر شيئًا.

فقال له:

- أحسنت.

ذهب فورولو.

الخطاب الثالث الذي كتبه فورولو إلى أبيه بدأ بالصيغة التالية: "بكل سرور أود أن أبلغك أنني أتممت الشهادة...". هذه الصيغة التي تعلمها بالمدرسة خلال موضوع تعبير - عنوانه "تخيل أنك أتممت الشهادة وأنك تبلغ صديقًا" - بدت له تستحق القراءة في باريس.

بما أنها كانت تنقل الحقيقة بدت له أكثر جمالاً وجديرة أن تخرج من تحت يد شخص حاصل على الشهادة حديثًا. كان فخوراً مقدمًا من تأثيرها على كاتب والده.

كان قد أتمها مع زميلين آخريين. عُقد الامتحان بفورت ناسيونال، التى تقع على بعد عشرين كيلومترا من القرية، وهى مدينة حقيقية تعج بالفرنسيين وتزخر بالمبانى الضخمة، الشوارع الجميلة والمحلات المبهرة والسيارات. لم تكن تلك تيزى، كل شىء بد له أكثر جمالاً، نظافةً وضخامةً. عندما فكر فى أن الناس تقول عنها إنها مدينة صغيرة! كان لديه متسع من الوقت لزيارة المدينة لأنه ذهب ليلة الامتحان، تعجب وسعد أنه تعلم الفرنسية، جذب انتباهه أن هناك صبية فى مثل عمره يتحدثون الفرنسية بطلاقة مثله، غير أن نطقهم أفضل.

حتى يومنا هذا يتذكر النداء على الطلاب، شكل المفتش، الممتحنين، غريبين أصليين. إنه فى الفصل، عليه أن يكتب موضوع إنشاء ويحل بعض المسائل. تماسَكَ، فعل على قدر استطاعته، نجح وتخطى الامتحان الشفهى. أين خجله المعتاد؟ فقد أجاب ولم يخش شيئًا، لم يعد نفس الشخص، حتى إن معلمه لن يتعرف عليه.

فى القرية، عاد متأخرا مع زميليه، جميعهم متعبون، إلا أنهم أول من استيقظوا فى الصباح ليرووا الواقعة للمعلم ولزملائهم، تم تحيتهم، كانوا بمثابة عباقرة، غمر فوروولو إحساس بالسعادة والشموخ، يجب إعلام والده بذلك.

جاءه الرد الذى طالما انتظره مع مبلغ مائتى فرنك. الخطاب والمال سلمهما له صديق لوالده يقيم معه فى نفس العنوان بباريس وعائد من فرنسا. عندما عاد هذا الصديق من فرنسا، ذهب إليه فى منزله. قبل الصديق فورولو بالنيابة عن أبيه ثم أعطى المال لأمه. ثم أخرج من حقيبته كتالوجا ضخماً لإحدى دور صنع الأحذية وقصة حب فى مجموعة جولواز مربوطة بخيط.

- يقال إنك متعلم، تلك كتب شيعها لك والدك، أتعلم أنه فى غاية السعادة.

أخذ فورولو الكتب.

(٣)

في شهر أكتوبر التالي، بدلاً من أن يترك المدرسة، قرر فورولو العودة إليها ليعد نفسه لامتحان للحصول على منحة دراسية. داخله، يعلم أنه سيكون أكثر إفادة لو بقي بالمنزل ليرعى الغنم. إلا أن زميليه اللذين حصلا معه على الشهادة قررا ألا يتركا التعليم، وبالتالي لم يكن أمامه سوى تقليدهما. ثم إن الحيوانات الوحيدة التي تملكها الأسرة هي الماعز. كل ثلاثين أو أربعين يوما، يمكنه أن يتغيب نصف يوم ليرعى هذا القطيع. بعد ذلك، سيكون طليقا حتى يعود دوره. أما في المنزل، فإطعام المعزة ليس بعسير: في الصيف، يكفي حقيبة من أوراق الزيتون، في الربيع، بعض الأعشاب، في الشتاء تكفي بعض أغصان الزيتون أو أشجار البلوط، وأحياناً بعض الأعشاب إذا كانت متواجدة. مع كل هذا إذا لم يحصل فورولو وأخوه على كسكسي بالحليب، ستكون تلك معزة جاحدة.

بالطبع الرعاة لديهم انشغالات أخرى إلى جانب رعاية الحيوانات ومنها حراسة الممتلكات، والبحث عن الخشب، وجمع الزيتون أو التين على حسب المواسم، لكن فورولو لديه شقيقتان أكبر منه وبالطبع يمكن الإفادة منهما. يمكنه هكذا الذهاب إلى المدرسة دون إزعاج أحد.

والدته وشقيقاته يتحملن أعمال الحقل. والده يشيع بشكل منتظم مائة وخمسين أو مائتى فرنك لشراء الشعير، يشترى عمه لونيس ما يحتاجون إليه من الأسواق.

فى موسم الزيتون فقط يحسد من تركوا المدرسة. تنقض آلاف طيور السمان والزرزور على أشجار الزيتون، فى ذلك الوقت، يسرع الرجال من فرط الثمار، والنساء في جمعها، والحمير فى حملها. أما الرعاة فيتمتعون بالصيد. تغطى مساحات شاسعة بالفخاخ. كل راعى يضع مائتين، ثلاثمائة أو حتى خمسمائة. يرحل الصبية فى الصباح - وقت الصقيع - ليغيروا الطعوم ويضعوا زيتونًا كبيرًا لامعًا. ثم يتجمعون على شكل مجموعات تحت أشجار زيتون ضخمة على تل مجاور ليراقبوا الفخاخ. يوقدون نارًا لتدفئة أقدامهم وأصابعهم، وينتظرون على أحر من الجمر اللحظة التى يقومون فيها بتقصى الفخاخ.

خلال أيام الإجازات، عرف فورولو هو الآخر لحظات الانتظار تلك المليئة بالأمل. يفقد الصبية شهيتهم، ولا يشعرون بالبرد أو المطر أو حتى الأشواك. عندما يرون طيرًا وقع فى الشرك، يشعرون بأن تعبهم قد تمت مجازاته. يتم ذبح الطيور، وقص ريشها ويتم جمعها، لكن خرج التلاميذ بالصدفة، يمر الرعاة ليثيروا غيرتهم.

حاول فورولو أكثر من مرة أن يضع شراكا فى حقله، سرقت الطيور أثناء تواجده بالمدرسة. وصل غضبه إلى قمته عندما سُرق الفخ والطير. ينتقم متمنيا من كل قلبه رحيل الطيور المهاجرة - كلمة يشرحها

بكل سرور للجميع – وينتظر بفارغ الصبر قدوم شهر مارس حيث ينتهى موسم الصيد والزيتون.

بما أنه ضحى بالمتع لأجل الدراسة، لم يكن أمامه سوى أن ينجح فى الامتحان. هذا ما فعله بكل تفوق. موضوع الإنشاء كان متماشياً مع ظروفه: "والدك عامل بفرنسا ولا يجيد القراءة ولا الكتابة. يتحدث إليك عن الصعوبات التى يواجهها الأشخاص غير القادرين على القراءة والكتابة، عن ندمه أنه لم يتلق التعليم وعن أهمية التعلم". والده كان فى ذلك الوضع، استطاع أن يتخيل الصعوبات التى يواجهها عند شراء مستلزماته، عند البحث عن عمل أو عندما يتلقى أوامر من رئيسه. تخيله يتوه فى المترو أو الشارع، اعترف أنه يصعب الاحتفاظ بأسرار العائلة بما أن غيره يكتب له خطاباته. لم تنضب أفكاره واستطاع أن يكتب موضوعا جيدا. أما عن المسائل الرياضية، فالجميع يثق به. فهذه مادته المفضلة، تفوق فى الامتحان الشفهى وعاد إلى منزله واثقًا من النجاح.

كان يفكر بالفعل فى الجملة المنمقة الذى سيستخدمها ليعلن الخبر لوالده، إلا أنه لم يستطع استخدامها هذه المرة. لم تعرف السعادة طريقها إلى قلبه إلا لوقت قصير. عمار أحد شباب القرية، عاد للتو من باريس حاملاً معه أخباراً سيئة. قابل فوررولو بجوار القهوة. أمسك الصبى يده ليقبلها ليهنئه بالعودة، فإذا بعمار يأخذ يصيح مهموماً ويقول:

– أتيت لتسألنى إذا رأيت والدك؟ نعم لا تقلق. اذهب لتحضر والدتك، لدى شىء لكم؟

– هل أعطاك خطابا؟ سلمنى إياه!

– الخطاب فى جيبى، لتأت والدتك أولاً، أسرع.

جاءت والدتى على عجل.

– نانا فاطمة، قال الرجل، أبناؤك محظوظون. قدمى قربانك إلى مقام القرية، زوجك واجه الموت، الآن أنقذ، لا تخشى شيئًا.

اصفر وجه المرأة المسكينة وابنها.

– ماذا حل به؟ هل تقول الحقيقة؟ إذا كان قد توفى أو فى خطر، فلا داعى لتخفى الأمر. فأنا سيدة شجاعة وهو لم يكتب منذ شهرين.

– لا! فأنا أقول لك إنه شفى. أصابه طنبر بالمصنع، نُقل إلى المستشفى وسيعود إلى العمل قريباً. خذى لقد بعث لكم مائتى فرنك.

– هل مازال بالمستشفى؟

– كان على وشك الخروج الأسبوع الماضى.

– و المال؟ كان معه!

– قال لى أن أعطيكم مائتى فرنك! يمكننى أن أعطيكم المزيد إذا أردتم. فورولو هذا هو الخطاب. يقول لكم أن تعيشوا بسلام مع جيرانكم، نعم لا تقلقوا لأجله. لقد عانى ولكنه سيشفى. لم يرد الله أن يحرم أبناءك من أبيهم.

عادت الأم وابنها إلى المنزل بعد أن تسرب الحزن إليهما. ما إن عادت الشقيقات من الحقل، حتى التفت العائلة بأكملها حول الموقد، ظهرت علامات القلق على الوجوه. من حين لآخر، تمسح فاطمة بطرف طرحتها دموعها. يبكون في صمت؛ لأنه يجب إخفاء هذا الأمر عن الجيران.

عاد العم لونيس في المساء، علم بالخبر بتفاصيل أكثر. حاول طمأنة الصغار إلا أنه لا يشعر بأية طمأنينة. هل الوضع حرج أكثر مما وصفه عمار؟ ربما أخفى شيئًا. توسلت الأم للونيس ليحكي ما يعرفه. أقسم لونيس على أن حالة أخيه لا تقلقه. أراد أن يأخذ الصبْيان ليتعشوا معه، رفضت فاطمة، خرج مستاء. الجميع حزين ويسهل استثارته. يعتصر اليأس الجميع. والخطاب لا يحمل شيئًا مريحًا بعض النصائح المقتضبة. "... لقد شيعت لكم مائتي فرنك، حاولوا أن تحافظوا عليهم أطول فترة ممكنة. لن أبعث بشئ لبعض الأشهر، إذا احتجتم إلى المال، يمكنكم بيع معزةً وشجرة..."

في اليوم التالي، بالمدرسة، علق المعلم على ملخص نص عن الأخلاق، وقال تقريبًا الآتي: "الطفولة هي أسعد المراحل العمرية! فأنتم أيها التلاميذ لا يشغل بالكم سوى التعلم أو اللعب. يمكنكم النوم العميق، فأنتم لا تفكرون في شيء. أحيانًا يقضي والدكم ليلة بأكملها دون أن يغمض له جفن، قلقًا بسبب صعاب من شتى الأنواع. يفكر في أبنائه،

فى الدائنين الذين يطاردونه، فى الجرات الفارغة. أنتم بلا متاعب، فأنتم لا تعرفون كل هذه المشاكل". خطأ! وألف خطأ، فكر فورولو فى الوقت الذى تحدث فيه معلمه، كم تمنى أن يخرج من صمته ليقول له إن الصغار أكثر حساسية من ذلك ويقاسمون فقر آبائهم.

سرعان ما انتشرت الشائعات الأكثر غرابة بشأن رمضان مما تسبب فى بث الرعب فى نفوس عائلته المسكينة: يقول البعض إن ساقه بترت وقد تكون الساقان، والبعض الآخر يؤكد أنه صار ضريرا، فيما ذهب فريق ثالث ليقول إنه توفى. ذهب لونيس إلى تيزى أوزو وشيع تلغرافًا إلى مدير الفندق الذى يقيم به شقيقه دافعا ثمن الرد. جاء تلغراف ويعقبه خطاب. لا يمكن لفرنسى أن يكذب. فى النهاية، اطمأنت العائلة.

(٤)

مر عام ونصف العام منذ إقامة رمضان بفرنسا.

ذات مساء فى سبتمبر، عاد فورولو من الحقل مع شقيقه الصغير، كان يقود قطيع المعز الذى أخذه للرعى. قرب القرية، قابل الطفلان ابن عمهما الكبير أشين الذى كان ذاهبًا ليسقى حماره. انحنى أشين نحو داردار، قرص خده ثم قال له:

- اجر إلى بيتك، اسبق أخاك، عاد أبوك.

تسمر الصبيان وسط الطريق من هول الدهشة، فهما لا يجرآن على الحركة أو حتى على الحديث، بينما ابتعد أشين ببطء وهو مبتسم. قفز فورولو وكأنه استيقظ للتو وانطلق إلى الأمام، تخلى عن القطيع ونسى داردار الذى بذل مجهوداً مضنياً ليلحق بأخيه الكبير.

رمضان كان بالمنزل، التف حوله الجيران، بينما وقفت فاطمة وهى تسطع مثل الشمس على عتبة الباب لتستقبل الزوار. أفسح الصبيان طريقًا إلى أبيهم الذى قبلهم واستقبلهم بضحكاته المجلجلة.

قالت عجوز: ليحفظ الله لك فورولو فقد صار رجلاً الآن.

– ليـــنزل الله عليــك الســـلام! نعم، فقـــد كبر، آن الـــوقت لذلك، فقـد استهلكت.

– أنت؟ أنت أكثر صلابة من ذى قبل!

فى حقيقة الأمر، تغير رمضـان، فقد اكتسب وزنًا، ووجـهًا، ويداه غطاهم تقريبًا اللون الأبيض، اكتسب وجـهه ألوانًا جميلة حتى إنه يمكن القول إنه لم يمرض.

– على الرغم من ذلك، كان يأكل جيدًا هنا، قالت فاطمة، تعرفون جميعًا – نحمد الله – أننا لا نحرم أنفسنا من شىء.

أجابوه:

– لا يوجد وجه مقارنة بين فرنسا وهنا.

فورولو كان يود أن يذهب الجميع فى أسرع وقت حتى ينفرد بوالديه. فى ركن من المنزل تقبع حقيبة كبيرة ومتاع غامض، تنجذب عين فورولو إلى هناك. داردار، دون أن يحكم تصـرفـاته جلس على المتـاع وحـاول بأسنانه وأظافره قطع الخيط الذى يغلق الحقيبة. من شدة الغيرة، حاولت زازو منعه ونتج عن ذلك معركة جذبت انتباه الكبار لفترة.

اضطر رمضـان أن يخضع لاستجواب كل من لديه أقارب بباريس، أجاب الجميع بود ثم سلم بعض الودائع التى أعطيت له. آخر من غادر

كان على رغبة الصغار العم لونيس. اهتم فوروولو بحديث الشقيقين بخاصة أنه تمركز حول الحادثة والآلام التى عاناها، غير أنه كان على علم بأن لديه متسعا من الوقت ليستمع إلى ذات الحديث مرة أخرى. فى الوقت الحالى، ما كان يهمه هو تفتيش الحقائب، كما كان على عجل ليتحدث عن نجاحاته الدراسية. أخرجوا من الحقيبة اثنى عشر رغيف خبز وملابس، المتاع كان ممتلئًا عن آخره. تم تقطيع الخبز وتقاسمه مع الجيران، تجول بينهم تيتى وفوروولو، حصل العم على رغيفين كاملين، وفى هذه الليلة، قبل أن يذهب إلى النوم، أعطى رمضان الملابس إلى أبنائه. فى التو ارتدوا ملابسهم الغريبة وكأنه مهرجان، سخروا من بعضهم البعض، ضحكوا وتخاصموا. فى نهاية الأمر، نام داردار فى قدميه الحذاء الجديد ومرتديا سيدارى لونه أحمر مثل الجمر، وعلى رأسه بيريه يخفى أذنه، زازو اختفت فى جلباب مخصص للأم، لم يخرج سوى رأسها، وعلى رأسها يوجد شال من الحرير الأصفر تتدلى أطرافه على عيونها. فوروولو، من سماته النظام، وضع أغراضه فوق وسادته مانعا أى شخص أن يلمسهم. بايا وتيتى، الشقيقات الأكبر سنًا، احتفظن بأغراضهن بين خصرهن، متظاهرين بالاستماع إلى والديهن.

كان رمضان يحكى للمرة الثانية كيف وقعت الحادثة. نيته الواضحة كانت جذب اهتمام أبنائه وبالأخص فوروولو، أخرج من محفظته مجموعة من الأوراق.

– امسك، أقرأ تلك الأوراق إذا كنت فعلاً متعلمًا. هذا بعض من ما مر به والدك وبعض مما عانه.

نظر فورولو إلى الأوراق إلا أنه لم يفهم شيئًا. أعلى الورقة يمكنه قراءة "مستشفى لاريبواسيبير" بوضوح وكذلك إيصال بنفسجي. لقراءة كل ما هو مكتوب كان يحتاج إلى الطبيب نفسه. كانت شهادات، بعد ما اطلع فورولو بعناية على كل ورقة، أعادهم إلى والده، وهو يومئ برأسه وكأنه فهم.

- هل رأيت؟

- نعم.

- سأريكم الآن الجرح، قال الأب تلك العبارة وهو يفتح أزرار قميصه، لقد فتحوا بطني.

بحلق أبناؤه من فرط الدهشة، فطمأنهم.

- لا ليست مشكلة، فقط تم تقطيب الجرح فيما بعد. لا يبقى سوى علامة طويلة.

اقترب الأبناء من أبيهم، ورأوا بالفعل علامة تعبر بطنه طوليًا حتى إنه يقطع منطقة السرة، لامسوا بطنه بحرص خوفًا أن تنفتح مرة أخرى، لا يوجد خطر، إنه تم تقطيبها جيداً.

ثم أخرج رمضان من متاعه لفة أوراق تشبه الكراسة. الخط كان كبيرا ومنمقا. هذه المرة استطاع فورولو القراءة والترجمة. لاحظ جدياً الأب أن ابنه متعلم. كان حكم من محكمة اللاسين المدينة. طبقًا لهذا الحكم،

حُكم على شركة تأمينات أن تدفع مدى الحياة للسيد منراد رمضان مبلغ أربعة وسبعين فرنكا كل ثلاثة أشهر.

- أترى؟ أبوك ليس رجلا سهلا، قال رمضان لابنه، خسرت قضيتى أمام اللجنة المحلية(١٠)، لكنى استأنفت فى المحكمة وكسبت القضية.

لماذا اللجنة المحلية والمحكمة؟ رمضان كان يعمل مصاهر أوبرفيليه، عمل هناك بلا توقف تماماً مثل فى حقله بقابلية. علاوة على الساعات الإضافية كل يوم، كان يعمل كل الآحاد. تحديداً، فى أحد أيام الأحد، حُشر رمضان بين الحائط وطنبر مدفوع على سير. تم نقله إلى عيادة الشركة، وشفى خلال أسبوع. لم يكن لديه أى جرح ظاهر غير أنه كان يعانى من آلام داخلية. حثه الطبيب على الخروج من العيادة، لم يكن منراد يأمل فى أكثر من ذلك؛ لأنه يرغب فى العودة للعمل. كان على عجل من أمره لتسديد ديونه ليعود إلى أبنائه، خرج وعاد إلى المصنع. مع نهاية اليوم الأول، عندما عاد إلى حجرته، عادت الآلام لتهاجمه بضراوة أشد. نُقل إلى المستشفى مرة ثانية وهو بين الحياة والموت. فى مستشفى لاريبواوزيير أدخل العمليات، أمضى هناك ثلاثة أشهر، ثلاثة أشهر طوال من الألم والقلق بعيدا عن أطفاله وبلده.

---

(١٠) اللجان المحلية أنشئت فى فرنسا عام ١٧٩٠ وتم إلغاؤها ١٩٥٨، وكان الهدف من تلك اللجان أن تقدم عدالة سريعة وفعالة وكان لكل منطقة اللجنة الخاصة بها.

عندما طلب من الشركة التعويض المخصص عادة إلى من تعرضوا لحوادث عمل، رفضت، فلجأ إلى العدالة. قلوب رحيمة ساعدته وقدمت له النصيحة، بل ووجهته إلى من يلجأ. بعد العديد من المغامرات التى لن ينساها أبداً، تحصل على قيمة التأمين المستحقة وتعويض مدى الحياة لم يكن طلبها أو حتى انتظرها. لو كان فورولو تخيل هذه القصة فى امتحان المنح، لكان أضاف فقرة لموضوعه وهو يروى كل متاعب أبيه، هذا ما كان بالفعل أدهش الممتحنين.

بما أن كل ما رواه رمضان كان من مملكة الماضى فاتفق الجميع على رأى فاطمة، فاطمة هنأت نفسها على الحادثة التى سمحت للعائلة بضربة واحدة أن تجنى ثلاثة ألف فرنك.

هذا المبلغ كان سيتطلب من الأب عاماً آخر، وافقها الرأى رمضان، فقد عاد من فرنسا بطنه مقطب لكنه ثرى بما يكفى ليدفع ديونه ويستعيد هدوءه المعتاد. كان بحوزته ما يقرب من عشرة آلاف فرنك. وتعويضه الضئيل يضمن له شراء الدخان حتى آخر العمر.

نصحه الأطباء بعام من الراحة وعدم الحركة التامة، مع تناول طعام صحى ووفير. لا يعلمون بالتأكيد أن سكان القبائل عظمهم قوى ولا يلتزمون بتعليمات الأطباء إلا إذا لم يكن لديهم القدرة على العصيان. من جهته رمضان يعلم أنه على خير، كما ينتظره حقله. أصدقاؤه وأعداؤه يراقبونه. سيثبت للجميع أنه لايزال قوى الشكيمة، لن يحصل سوى على يومين راحة...

كان ذلك فى شهر أكتوبر، فوروُلو الذى ترك المدرسة، يذهب بانتظام مع والده إلى الحقل ويقاسمه العمل. اشترت العائلة جاموستين، وخرافا وحمارا. كان على كل أفراد العائلة أن يكدوا. يبدو أن الأيام السعيدة على الأعتاب. فرح رمضان أنه وجد فى ابنه مساعدة محمودة. دون أن يتأخر، قرر أن يكلمه كرجل وليس كطفل. بعد الظهيرة، كان الاثنان فى الحقل قرب الخُص الذى يحتوى على خزين التين. كان الأب يحيك بردعة الحمار التى قرضتها الفئران خلال غيابه الطويل.

– تعلم يا بنى أن زوج الجاموس والخراف والحمار ملك لنا. أرغب فى شراء خروفين آخرين. نحن فردان وذلك ليس فوق قدرتنا. فى الربيع، سنبيع الجاموستين لنشترى زوجا آخر أصغر سنًا. سنبيع ثلاثة خراف، يمكننا أن نمتلك بقرة، سنحظى بزيت إضافى يفوق استهلاكنا. فى الصيف القادم، سأذهب على ظهر الحمار لأبيع الخضار، بينما ستراعى أنت وشقيقاتك الحيوانات. سرعان ما يمكننا استبدال الحمار ببغل، سأستطيع التفرغ للتجارة، ستذهب معى من حين لآخر فى الأسواق لتكون على دراية بالأمر. أعتقد أنه بفضل الله لن نكون بائسين مرةً أخرى. كلما أسهب الأب فى الحديث عن مشاريعه، اندهش فوروُلو، رأى تنفتح أمامه آفاق لم يكن قد فكر بها، رأى مستقبله كفلاح، علم أيضًا أن بفضله قد يعم الخير على عائلته. غير أنه متشكك لأن لديه حلما آخر. تخيل نفسه دومًا طالبا فقيرا لكن مميز اعتاد صورة ذلك الطالب، حتى إنه قدسها وهكذا فى بضعة ثوان استطاع والده، لأسباب وجيهة، أن يطردها مثل الشبح.

غير أنه همس معبرا عما يدور بخلده:

– ماذا لو حصلت على المنحة؟ سأستطيع أن أكمل دراستى دون أن أكلفك مصاريف، هذا ما قاله لى المعلم.

– أولاً، لم تُمنح شيئًا، بدليل أن الإجازة الصيفية انتهت ولم يكتب لك أحد، ثم حتى إن أتى المال هل تعتقد أننا خلقنا للمدارس؟ نحن فقراء. التعليم للأغنياء هؤلاء يستطيعون السماح لأنفسهم بأن يخسروا بضعة أعوام؛ ليفشلوا فى النهاية وليعودوا إلى القرية ليلعبوا دور الكسالى. أليس ذلك حال سعيد ابن المُقرض؟ فى أجونى، هناك اثنان أو ثلاثة. لقد استعلمت. المسألة صعبة، الفرنسيون لا يعطون مكانا لأحد لا يستحقه. بينما إذا بقيت هنا، ستكسب مثلى ولن ينقصنا شىء. فى غضون عامين أو ثلاثة، ستصبح قويًا كفاية لتعمل بفرنسا. بفضل الشهادات التى حصلت عليها، سيكون وضعك أفضل منا جميعًا. لن تعرف البؤس الذى عرفته. فرنسا جميلة حقًا، سترى، ستفهم كل شىء. عند عودتك سنزوجك، هذه هى الحياة التى أعرضها عليك، هى الحياة الوحيدة التى تناسبنا. سيكبر شقيقك، ستوجهه، ستتزوج شقيقاتك، ستحل محلى فى كل شىء وسأستطيع أن أموت وأنا مطمئن.

فى صمت استمع فورولو، وأعجب بتلك الحكمة. عندما تحدث والده عن الزواج، احمر وجهه خجلاً. عينا رمضان كانت مثبتة على البردعة التى يحيكها، أنهى حديثه، لم يكن هناك أى رد ما دام ينطق بالعقل،

صمتا للحظة، فكر كل منهما فى تلك الكلمات الهامة. ثم أوكل رمضان بعمل لابنه، فنهض فورولو وابتعد.

فى المساء، لما عادا إلى القرية، وجدا خطابا من مدير مدرسة تيزى أوزو الإعدادية تعلمهما أن الطالب حصل على المنحة، وأن مكانا خصص له وبالتالى عليه أن يذهب دون تأخير. هكذا يحب القدر أن يفاجئ الناس.

انبهر الصبى، بعد أن بدأ فى فقدان الأمل. عاد إلى ذهنه صورة الطالب الفقير بكل إغراءتها. أصبحت أكثر التصاقًا به بعدما أصبحت حقيقة، حتى الأب شرع فى الاعتقاد بها. هل هو من عينة الرجال الذين يتركون المائة وعشرين فرنكا الذى ستعطيه الدولة لابنه؟ لا! أليس كذلك؟

لم يعاود هو أو فورولو فتح الحديث الذى دار بالحقل، اتفقوا على أن ينسوه، لم يتحدثوا سوى عن المنحة، المدرسة أو الدراسة. أصبح فورولو بطل السهرة. نظرت إليه شقيقاته باحترام، أعدت فاطمة عشاء على شرفه، فى الوقت الذى جلس مع أبيه بمعزل عن الآخرين ليناقشوا الأمور الهامة. عليه أن يعد للرحيل، لم يكن ذلك أمرًا سهلاً، غير أن العائلة بحوزتها بعض المال و"بهذا المال، قال رمضان فى صمت: "يمكن" حل تخطى جميع الصعوبات".

كان رمضان على حق. فى اليوم التالى، بدأ العمل الجدى، ذهبوا للاستعلام لدى المدير، تم التحاق فورولو، ثم طلبت العائلة الأدوات المدرسية اللازمة من الجزائر العاصمة، صُرفت مبالغ ضخمة واستطاع الطالب الجديد أن يبدأ الدراسة بعد إجازة عيد القديسين.

منراد ليس أحمق، إنه يعرف جيداً أن ابنه لن يصل لشىء، لكن فى المدينة سيتم إطعام ابنه بشكل أفضل، سيشب بعيداً عن الحياة الصعبة. إذا كانت الدولة تريد مساعدته فى تربية ابنه، لن يعترض رمضان على ذلك. المهم هو أن يرى ابنه وقد تحول إلى رجل فى أسرع وقت ليشاركه فى تأمين احتياجات العائلة. أما فورولو فلم ينظر إلى تلك الفرصة بشىء من الخبث. فكان صادقًا، التحق بالمدرسة الإعدادية ليحصل على شهادته وليلتحق بمدرسة إعداد المعلمين، وليصبح معلمًا بالمرحلة الإبتدائية.

(٥)

ما إن رحل ترك فورولو عائلته تعيش فى الحزن. الجميع يأسف لرحيله، حتى إن المنزل بدا أكثر حزنًا. فى المساء، وقت العشاء، لاحظ الجميع الفراغ، شعروا أن العائلة أصبحت أقل نفرا عن اليوم الذى سبقه، وكأن الفتى يحتل محل ثلاثة أو أربعة أشخاص. ثم أصبح المحور الوحيد لحديث العائلة، تذكر الشقيقات إساءتهن لمن سيصير مستقبلاً رجلا عظيمًا، ندمن أنهن لم يتحملنه فى مناسبات عديدة، وعدن بأن يحنون عليه أكثر، كم تمنت الأم أن تشيع له كل ملعقة كسكسى تتناولها. شعرت بالقلق؛ لأنه سيعد سريره وحده تلك الليلة، ولأنه سينام وحده منذ الآن فصاعداً ولن يكون هناك من يراقبونه أثناء غفوته. شعرت بالألم لأنه بعيد عن حنانها ورعايتها. حاول الأب سدى طمأنتها، غمرت الدموع عينى فاطمة، سعل ثلاث أو أربع مرات ليتحلى برابطة الجأش.

على الرغم من ذلك، كان فورولو يشعر بالطمأنينة والاستقرار. نام لأول مرة فى حياته فى سرير حقيقى، بعدما تناول أشياء لا يمكن لأمه أو لأخواته أن يتخيلنها. لم يكن ليفكر فى عائلته. الثلاثة أيام الأخيرة عرف

خلالها أحداثا هامة، عاشها وكأنها حلم، كان يحتاج أن يتذكرها بأدق التفاصيل ليتأكد من حقيقتها، وليعلم أنه لا يوجد خطأ وأن سعادته حقيقية.

مساء السبت: كان في منزله. حصل للتو على ملابسه البسيطة. قرر المدير أن يسجله كطالب داخلي، رفض الأب لأنه لا يملك المال الكافي. تم تسجيله كطالب خارجي، إلا أنهم لم يجدوا غرفة للإيجار. أما بالنسبة للطعام، هناك المطاعم الزهيدة. عاد رمضان إلى منزله ويمر بلحظة تردد. هل عليه أن يقبل أن ينام في الفندق؟ مصاريف كثيرة في المستقبل. ارتبك رمضان. هل يترك ابنه لنفسه في مدينة كبرى؟ هل عليه أن يعاود الاقتراض ليدخل بالمدرسة الداخلية؟ لقد أصر المدير بشدة على ذلك.

صباح الأحد: العلي القدير لا يتخلى أبداً عن التعساء. جاءت يد العون من خلال وجه أزير اللطيف. أزير صبي من قرية أجوني ومن نفس عمر فورولو، إنه تلميذ بالمدرسة الإعدادية، سمع عن فورولو وعن منحته، ذهب لرؤيته بتيزي. منذ الوهلة الأولى وجهه يشعرك بالثقة: أشقر ذو عينين زرقاوين. يتبسم باستمرار، ابتسامات عريضة تجذب الصداقة، علاوة على ذلك لديها المقدرة على تسهيل كل الأمور المعقدة.

– أنا طالب خارجي مثلك، هكذا تحدث إلى فورولو، وحصلت على منحة، نحن من نفس البلد، أرغب بشدة ألا أشعر بالوحدة، إذا أردت يمكننا العيش معاً وأن نصير صديقين.

تمنى فورولو أن يقبلوه، كان أزير قادراً على حل الصعوبات، فلا يحتاج أحد إلى مقاطعته أو استجوابه.

- أبى ليس ثريّا ليدفع مصاريف الإقامة بالمدرسة الداخلى، يوجد بتيزى أوزو مبشر بروتستانتى يأوى التلاميذ القادمين من الجبال. أسكن عنده، نحن ما يقرب من الثلاثين، تحدثت إليه عنك، سيمنحنا حجرة، وكهرباء، وكرسيين وسريرين. فى الصباح، يقدمون قهوة وخبزا، وكل ذلك بلا مقابل، تقع الإرسالية على بعد خطوات معدودة من المدرسة.

شىء لا يصدقه عقل، شرح أزير أن المبشر رجل خير يعاون الفقراء، تقريباً مثل القساوسة البيض. إلى جانب كل الخدمات التى يقدمها إلى سكان الجبال التعيسين، كان يجعلهم كل ليلة فى غرفة كبيرة ليتحدث إليهم عن الدين، ليقدم لهم المشورة وليعلمهم. شىء جميل، سعد فورولو ووافق بترحاب، تلقى بعض التوصيات العملية (الأمتعة، المال، والكتب) والتى استمع إليها بعدم تركيز، اتفقا على أن يتقابلا فى اليوم التالى. ترك زميله الجديد لينهى استعداداته وليطمئن والده بإبلاغه الخبر السعيد. صدق بصعوبة رمضان ما رواه له ابنه، كانت معجزة، فقد وقف الله إلى جانبهم.

صباح الإثنين: رحيل على عجل للوصول قبل الثامنة. وسيركب الأتوبيس للمرة الأولى! هل يحلم الشاب؟ ذهب إلى المدرسة حتى قبل أن يقابل السيد لامبيرت، رئيس البعثة. شعر فورولو بأنه تائه وسط جموع التلاميذ، لم يتعرف على نفسه، يرتدى ملابس إفرنجية مثل الآخرين،

قبل الدخول عقد له أزير رابطة عنقه بعناية، كونه عليما بمثل هذه الأمور. لا أحد يلاحظه، يمشى فى ظل أزير، يحمر وجه فى كل لحظة دون داعى. صافحه بعض الصبية إنهم صافحوا صديقه. سلم هو الآخر، مرا بمعلمين غير مبالين، دخل الفصل، فتح مثل الباقى كراسته التى أخذها بالصدفة من حقيبته، تابع الحصة بطريقة ميكانيكية، قلد حركات الآخرين، حمدا الله لم ينتبه له أحد، لا يشعر بالقلق، معانة ساعة، اختنق، ظن أنه ليس فى مكانه المناسب، هل كل ذلك راعى الأغنام السابق؟ هل أعدت له تلك الغرفة الكبيرة ذات الفتحات الواسعة من الزجاج، والمناضد الجديدة واللامعة؟ هل أعدت له تلك النظافة التى يخشى المرء من تدنيسها حتى عن بعد؟ هل خصصت له هذه السيدة التى تتحدث، وتشرح وتوجه الكلام إلى التلاميذ بأدب شديد حتى إنها تستخدم صيغة حضرتك؟ هل يصلح زميلا لهؤلاء الصبية الذين يرتدون أفضل الثياب، وحظوا بأفضل تربية ويبدون فى غاية الذكاء؟ يشعر وكأنه دخيل فى هذا المجتمع الجديد الذى يبهره. أزير الذى جلس إلى مقربة منه، يلتفت بين الحين والآخر ليشجعه بابتسامة، يفيض قلبه بالامتنان. أثناء الفسحة بدأ يطمئن. عادة ما يكون التلاميذ طيبين فى اليوم الأول. إذا كان تلاميذ الفصول الأخرى لم يلاحظوه، فإن زملاءه – على الأقل بعضهم – عملوا بلطف على جذب انتباهه: لعب أحدهم بالألفاظ ليضحكه، شرح آخر بحماسة مسألة فهمها الجميع تماماً مثله، قام ثالث بشدو لعنات كاميل بطريقة مضحكة، منراد على استعداد أن ينبهر

بكل ما يريدون، إنه منبهر بالجميع، بينما يرى نفسه كئيبا، مثيرا للشفقة وضئيلا.

فى الحادية عشرة، يذهب مع زميله إلى المطعم ليتناول حساء، بطاطس ولحما وسلطة. إنها لوليمة! ألا أنه يتذوق كل شىء بأطراف أسنانه لا يشعر بالجوع ومعدته تتقلص.

فى الرابعة عصرا، ذهب إلى السيد لامبيرت. السيد لامبيرت رجل لطيف، طويل ظهره مقوس قليلا، يمشى مشدودا وكأنه ضابط، الذقن الطويل الذى يزين وجهه المليح يُشعر بالاحترام والرهبة. صوته قوى أجش ورصين. ما إن تقترب منه وعندما ينظر إليك بعين كلها صدق، رقة وسذاجة، يتحول الاحترام إلى ثقة مطلقة. يستحوذ عليك ببساطة، يعطى لنفسه بكل ثقة الحق والقدرة على توجيهك، فتتركه يتدخل بكل سعادة. كل تلميذ بالمدرسة يتحمل ثقل مسئوليته. عندما يراجع ضميره، يقول لنفسه إن والديه يضحون بأنفسهم بدفع مصاريف الدراسة. أما النجاح يتوقف فقط على الأبناء. واجب هؤلاء جليا. لكن ليس هذا وضع من يقيمون ببعثة لامبيرت، السيد لامبيرت هو من يتحمل بهدوء هذه المسئوليات، ضيوفه لديهم هم أوحد: إرضاؤه، وإذا ما تم إرضاؤه يصعب عدم إرضاء الأهل. فهو معلم حازم، أب يقظ، صديق لعب لكل من ليس لهم جذور ويقيمون عنده. بالطبع ترك انطباعا ممتازا على فورولو.

- هل أنت منزاد؟

– نعم يا سيدى.

– لا! يجب أن تقول: نعم أيها الرئيس.

– نعم أيها الرئيس.

– أزير حدثنى عنك، ستقيم معه فى نفس الغرفة، هى معدة، ستعتاد سريعًا على عاداتنا، هنا، عليك أن تتحلى بالأخلاق الحميدة. أتمنى ألا تكون مدخنًا؟

– لا أيها الرئيس؟

– جيد، حدثنى قليلاً عن عائلتك.

تحدث منراد عن عائلته وعن إمكاناتها المادية بكل دقة، فهم فى التو لامبيرت أنه أمام عفريت فقير، واحد آخر.

– لديك المنحة، هذا هو الأساس، لتحتفظ بها عليك أن تعمل بكل جدية، كل زملائك يعملون جيداً، ستقلدهم وستنضم إلى الكشافة.

– نعم أيها الرئيس، أجاب منراد دون أن يفهم.

– سنشرح لك، ستعرف قريباً ما هى الكشافة.

ترك منراد هذا الرجل الشجاع بعد أن شعر أنه أصبح فرداً من عائلة "لامبيرت" الكبيرة. يا لها من راحة! فى المساء، تثنت له فرصة مقابلة بعض من أفراد الكشافة، بدو له خدومين بشكل لا ريب فيه.

هكذا انتهى أول أيامه، قبل أن ينام، استرجعها بالكامل، كان سعيداً وحمد الرب. إنه لم يفكر طويلاً فى شقيقه الصغير وشقيقاته ووالديه، إلا أنه تذكر بالرغم من ذلك صديق طفولته عقلى راعى الأغنام فى الجبال، بينما منراد أصبح...

(٦)

بعثة لامبيرت، التى يفصلها عن المدرسة عرض الشارع، تقع فى أعلى المدينة. أنشئت على مساحة ستين متر مربع، فى إحدى الزوايا، يوجد منزل العائلة، وإلى جواره، توجد قاعة للصلاة، قاعة كبيرة حوائطها عارية، وبها مقاعد، سبورة سوداء وهارمونيوم[١١]. تقع حجرات التلاميذ على أحد أضلاع المربع، ست فى الطابق الأرضى وست فى الطابق العلوى. يوجد باحة مغلقة، وحديقة ترعى بعناية، وتضم مغطسًا مظللا وعريشين ومقعدين فسيحين لونهما أبيض. فى هذا المسكن المضياف، عاش منراد وصديقه أزير أربعة أعوام، هنا أيضًا تذوقا فى مناسبات عديدة سعادة مشتركة لا يعكرها شيء، سعادة ما هى إلا ثمرة مثابرتهما. فى هذا المكان ترسخت بينهما صداقة لا يستطيع الزمن هدمها؛ لأنها ترتكز على الاحترام المتبادل والتفاهم المشترك.

لم يتأخر منراد فى التخلص من عقدة الدونية التى كانت تسلبه كل قدراته.. عندما اكتشف أن زملاءه ليسوا "ظواهر خارقة"، شرع فى

---

(١١) هارمونيوم آلة موسيقية تشبه الأورج، تستخدم فى الكنائس لإقامة شعائر الصلوات.

العمل بجدية ليحظى بمكانة مشرفة. سرعان ما تم تصنيفه هو وصديقه على أنهما "مجدان". لم يأخذا تلك الصفة على محمل الإهانة. وسرعان ما تركهم الجميع إلى حال سبيلها.

كل يوم أحد، يذهبان إلى الغابة تحت قيادة السيد لامبيرت، لينعما بمتعة نشاط الكشافة، يتعجب منراد من أن أشخاصا فى حدة السيد لامبيرت قد تضيع وقتها فى عمل أشياء صبيانية. هل رعاة الأغنام فى منشئه يمارسون نشاط الكشافة دون أن يدروا؟ نظريًا، القوانين المنظمة لعمل "مستطلع الكشافة" لم يكن فى المقدور نقدها. غير أن حماس الطالبين فتر كثيراً؛ لما عرفا أن المُستطلِع يمكن أن يكون على الرغم من كل ذلك شخصا منافقا وغيورا وكاذبا. فى الحقيقة القائد كان مستطلعا بأسمى معانى الكلمة. صارت نزهات الأحد بمثابة أعمال سخرة لمنراد وأزير. لم يحاولا قط التدرج فى الكشافة، كل ما يشغلهما هو عملهما بالفصل. لاحظ القائد ذلك، بما أنهما يتمتعان بالأخلاق الحميدة، لا يستطيع أن يطلب منهما أكثر من ذلك.

اتبعا نفس الطريقة خلال الاجتماعات المسائية فى قاعة الصلاة. كانا يذهبان بانتظام، يقومان بتلاوة آية من الإنجيل مثل الجميع، يرددان الترانيم باهتمام ويستمعان باحترام إلى وعظ القائد، ثم يعودان إلى حجرتهما دون تردد لاستكمال عملهما الذى قد توقف. لم يطلبا قط تفسيرا عن آية ما، لم يذهبا قط إلى الصالون ليستفسرا عن أحد نقاط الدين،

أو حتى ليطلبا من القس أن يصلى من أجلهما. يستقبل السيد لامبريت بترحيب بعض تلك الزيارات التى قد تتسم ببعض الصدق، إلا أن هذين الصبيين، لم يكونا تحت قبضته. تنصهر إرادتهما المتحدة معًا لتشكل إرادة يصعب استئناسها، ولا توجد طريقة لفصلهما. بالرغم من ذلك لم يتسم تصرفهما بأى مكر، كما أنهما ليس لديهما موقف معاد من البروتستانتية. على العكس، فمع الوقت، تعلما أن يحباها لبساطتها ولسماحتها. تعلما جيداً الإنجيل والعهد الجديد، وجدا سعادة فى ترنيم، حتى وحدهما، ترانيم فى تمجيد يسوع. أحيانا، فى قلبهما سرا، اعتادا أن يصليا مثلما رأيا الآخرين يصلون.

الدراسة فقط كانت لها قيمة فى عيونهما. إنهما يقيمان عند السيد لامبيرت ليتمكنا من الدراسة بشكل أفضل. إرادتهما فى النجاح حديدية، وعزيمتهما لا يمكن زعزعتها. أمضيا هكذا بكل سعادة فترة المراهقة من سن خمسة عشرة إلى تسعة عشرة سنة. تلك السنون التى يتوقف عليها بالنسبة لكل رجل صحته وسعادته. أثناء اليوم، يذهبان إلى المدرسة. فى المساء، بعد الصلاة، يستذكران دروسهما على الضوء الكهربائى حتى العاشرة مساء، ثم يضيئان شمعة ولا ينامان إلا فى منتصف الليل، أو فى الواحدة صباحًا. أحيانًا فاجأهما مؤذن القرية القابيلية وهو يردد أذان الفجر.

ليالى الشتاء الطويلة، سيتذكرها دوامًا. المنزل يغلفه الصمت، فى الخارج، تهب الريح وتتساقط الأمطار على السطح، الجميع ينام

فى ثبات عميق، يمكن فقط رؤية عبر "شيش" حجرتهما ضوءا خافتا. إنها الشمعة التى تحترق، جلسا متقابلين مرتدين "برانسهما" أمام الكراريس المفتوحة. لا يتحدثان، يستذكران دروسهما، يقاومان النوم، عقولهما المسكينة متعبة، يحسدان التلاميذ النائمة فى أمان، غير أنهما يصران على ذلك. خلال أربعة أعوام لم يذهبا إلى الفصل دون أن يكونا واثقين تمامًا من أنفسهما، ومن أنهما استذكرا جيدا دروسهما. فيما بعد، عندما سيلتحق منراد بكلية التربية لن يستطيع أن يبذل هذا المجهود. سيلاحظ مذهولا أنه كثيراً ما استنزف نفسه سدى، وأنه كان على وشك أن يستنزف صحته. علاوة على هذا المجهود الجبار، حرما أنفسهما قدر استطاعتهما. مهما تحدث إليهما كتب علوم الطبيعة عن السعرات الحرارية، عن كميات أكل تحافظ على الصحة وعن النمو، لا يصدقان شيئًا. اشتريا موقدا لإعداد طعامهما بأنفسهما فى الغرفة. بطاطس دائمًا بطاطس! يسهل إعدادها ومذاقها لذيذ. بالنسبة لمنراد، كانت تحيى بداخله ذكريات لذيذة. لكن بعد عامين من اتباع هذا النظام الغذائى، أوقفا. أما أزير، إذا تعرفتم عليه يومًا ما، تحدثوا معه عن البطاطس! أحيانًا من باب التغيير، يتناولان سريعًا، فى الحادية عشرة، وجبة باردة: نصف رغيف لاثنين وعلبة مربى بسبعين مليمًا فقط. لم يصرفا سوى ثمانين فرنكًا من مبلغ المائة وثمانين فرنكا، الذى يحصلان عليه كل شهر، أما الباقى، فيقومان بتحويله لأهاليهما.

بالفعل بين الحين والآخر، يزورهما رمضان ومهند والد أزير، ويمضيان الليل معهما. يهنئان أنفسهما على أن أبناء هما مقتصدان ويحثانهما على مواصلة ذلك النهج. تغمر السعادة منراد، فالجميع بالقرية، يذكرون فورولو بالحسنى، علاوة على ذلك، لا تكلف الدراسة شيئًا. على الرغم من ذلك، فمن العدل القول إن معاونة ابنه كانت تنقصه. اضطر سريعًا رمضان التخلى عن زوج الجاموس ليهتم فقط بحقول التين والزيتون. فى إجازة نهاية العام، عندما يعود التلميذ إلى بيته، تخيل رمضان أن عليه أن يطعمه بشكل مختلف عن الرعاة: فنجانا من القهوة فى الصباح، اللحم من وقت لآخر، بعض الدقيق لإعداد الكسكسى. اعتادت العائلة على هذا الفحش، فتآكلت المدخرات، عندما تقدم الشاب لإتمام الشهادة، اضطرت العائلة لتقترض لتشترى له زيا ولتدفع مصروفات إقامته بالجزائر العاصمة. تردد كثيراً رمضان قبل أن يتوجه إلى مُقرض. ما تم ذلك، أقر رمضان بسهولة بمزايا تلك العملية التى تنشل فعلاً الإنسان من متاعبه. اعتاد الاستدانة على مدى طويل وبدأ يلجأ إليها كلما احتاج إلى ذلك. تعب من النضال، صارت الأيام أكثر صعوبة. أفرغ حمولة عائلته على أكثر المُقرضين تشددا، الذى بدوره، فى الوقت المراد، سيضع هذا الحمل الذى عمل على إثقاله بعناية على أكتاف فورولو الشابة.

(٧)

منصبًا على دراسته، لم يكن فوررولو يدرك شيئًا عن مأساة العائلة. في عمر السادسة عشرة، كان واعيًا أن مستقبله قائم على مسائل هندسية ومعادلات الجبر، في حين يفكر زملاؤه في مظهرهم ويحلمون بالبنات.

كان فوررولو حساسا وحقودا، بنفسه غضاضة تجاه كل أفراد قريته الذين يرفضون أن يأخذوه على محمل الجد، والذين يسخرون من سذاجة عائلة منراد. في بداية العام الثاني، بعد ذلك العام الأول الذي يتسم بالنجاح البراق، كان على وشك أن يتخلى عن كل شيء. لم تجدد المنحة ولم يعرف أحد لماذا. انتظر مدير المدرسة شهرًا واثنين. في نهاية ديسمبر، بما أن لم يلح شيء في الآفاق، أنذر التلاميذ الحاصلين على المنح الذين اضطروا للعودة إلى قراهم واليأس يملؤهم. كان ذلك النبأ بمثابة حداد في بيت منراد. لم يكن من الممكن البحث عن مال إضافي لإبقائه في المدرسة. لم تداعب تلك الفكرة أحدا، عرفوا جميعًا أن فوررولو سيبقى معهم وسيعود راعيا، وباب الأمل قد فُتح له وأن الآن عليه أن ينسى آماله. في القرية، بعد العام الجديد، وما إن تنتهي الإجازة، سيبدؤون في

التساؤل، ثم ستليه النكات المعتادة. عند هذه الفكرة، يبكى فوررولو فى الخفاء، ويقول إنه خسر شرفه ولن يستطيع الظهور علانية مرة أخرى. على الرغم من ذلك، فلم يكن قد تم فصله بسبب مستواه العلمى أو لعلة فى تصرفاته، عاد إلى قريته؛ لأنه لم يكن فى حوزته مال. وعد مدير المدرسة أن يخاطب أكاديمية الجزائر العاصمة، قال لهم لابد أن هناك سهوا أو خطأ، فلا يمكن إلغاء جميع منح مؤسسة تعليمية بأسرها! ولكن كيف يُفهم ذلك للساخرين؟

بعد أعياد الميلاد، أمضى فوررولو أسبوعا كئيبا بتيزى. من قابلوه شرعوا فى إظهار شفقة مهينة أشعرته بالمرض. إذا حاول أن يشرح أن منحته ستعود قريبًا، وأنه لا يبقى فى القرية إلا لهذا السبب، يهزون رؤوسهم ويطلبون منه فى ألا يفكر فى ذلك الأمر مرة أخرى. أحيانًا يشتط غيظًا فتتجمع الدموع فى عينيه. فى هذه الحالة، يسخرون منه ويوجهون له الإهانة.

– يا ابن رمضان لقد تخلصوا منك أليس كذلك؟ لم يبق لك سوى الماعز تمامًا مثلنا!

– لا لا، سوف أعود إلى المدرسة!

– بأموال المُقرض ربما؟

– وماذا يضيركم فى ذلك؟

– أنت غبى، بدلاً من أن تساعد والدك، سوف تتسبب فى إفلاسه.

كـان والـده يبـدو غـيـر واثق ونادمًـا أنه وضـع ابنه على طريق وعـر عندما يكون المرء فقيراً.

خـلال هذا الأسـبوع، عـانـى فـورولو بشـدة. الأحـكام الحـمقـاء التى أطلقـهـا البعض أثـارت غثـيـانه وغيـرة الآخرين أثارت تمرده. الأقدار غير عـادلة وكذلك الرجال. بدا له كل شـىء معـاد له، إلا أنه مع الوقت فـهم أن عداء الناس، وشمـاتتهم وكراهيتـهم تنبع من أنهم قد أخذوه على مـحمل الجد. اعتقدوا أنه قادر على النجاح ورفع عائلة منراد، والآن...

عندمـا وصـل الخطاب الذى يحـمل الأنبـاء السـارة، عـاد إلى تيـزى أوزو بقلب يـغمـره السـعادة وبإصـرار على العمل حتى الإنـهاك لينجح. تحـدث أمـه عن تقديم قـربان إلى مـقـام القرية، لكنه يعلم أن القـربان لن يؤثر على مصيره. عرف أنه وحده فى معركة بدت له بلا رحمة.

فى العـمر الذى يحلـم أصـدقـاؤه "بألفير"(١٢)، يحـفظ فـوروللو قصـيـدة "البـحيـرة" فـقط ليـحصـل على درجـة جيـدة. لأنه ردد النص بنبـرة حـانقـة، بدلاً من أن يردده بعـذوبـة وشـجن قلب حـسـاس، وبخـه المعلـم، فـذهب فوروللو للجلوس غاضبـاً.

---

(١٢) كان للشـاعر الفرنسى لامـارتين مـحبوبة تدعى "ألفير" قد وافتهـا المنية قبل أن يكلل حبهـمـا بالارتبـاط، وفى قـصيدة البـحيـرة، يبكى لامـارتين رحيـل مـحبوبته عن العالم ويتـغنى بحبه لهـا. تعد هذه القـصيدة التى تنتمى إلى المدرسـة الرومـانسـية فى القرن التاسع عشر من كلاسيكيات الأدب الفرنسى.

لم يكن فورولو على علم كيف يمكن للعمل الشاق أن يخرجه من دائرة الفقر هو وعائلته. لكن لإنصافه: فهو لم يشك قط بفضائل المجهود، المجهود يجب أن يكافأ وتلك المكافأة سوف يحصل عليها. عندما تم قبوله بشهادة إتمام التعليم الأساسى، فهمت أخيرًا عائلته وكذلك سكان قريته أنه لم يخسر وقته تمامًا. غير أن تلك الشهادة تفسح مجالات ضيقة، فعليه أن يدخل مسابقات أخرى. كان فورولو مازال يحلم بالالتحاق بمدرسة المعلمين العليا.

كل عام، فى إجازة نهاية العام، يعود بين أهليه. كان يتثنى له نسيان المدينة وكانت المدينة تنساه. يتحول تدريجيًا، يفسح المجال تمامًا لأصدقائه، لمجلس القرية، للقهوة، لأعمال الحقل، للقرية بأكملها. وفى كل عام، فى أول شهر أكتوبر، عليه أن ينتزع نفسه من الجبال ويعود كفلاح بين زملائه الذين يترددون فى تذكره بعد أن اكتسب سُمرة وصلابة بفعل أعمال الصيف.

بحصوله على شهادة التعليم الأساسى، عاد فورولو إلى المدرسة. ذهب لعام أخير! منحته شهادته الثقة، بينما كان وضع أهله المالى أصعب من أى وقت مضى. فى القرية، لم يعد يعامل على أنه طفل. أخذ أبوه يطلب مشورته فى كل الأمور، الأعمام وأبناء العموم يدعونه إلى جميع الاجتماعات، أخذ البعض يأتى لطلب النصح أو لكتابة خطابات معقدة. أعطوه أهمية، غير أن فورولو لم يحاول أن يظهر بعض الغرور. على العكس، تمنى أن يقدم له النصح، أن يتم تشجيعه ومساندته.

شعر بالوحدة، وثقوا به فى الوقت الذى تمنى أن يثق فيه هو بأحد، أن يسير خلفه مغمض العينين وأن لا يضطر أن يكون مسئولاً بنفسه عن متابعة برنامجه الدراسى.

قبل رحيله قال له والده:

- اذهب يا بنى، سيكون الله معك، سيرشدك إلى الطريق الصحيح.

قبلته والدته بحنان وابتسمت بنوع من الغرور الساذج. كان جليًا، لم يعد الأهل يشكون فى شىء، كانوا واثقين فى نجاحه. سينجح ابنهم مرة أخرى وسيكونون جميعًا سعداء.

أما هو فكان على علم أنه إذا فشل، ستغلق فى وجهه إلى الأبد أبواب مدرسة المعلمين العليا؛ لأنه على شفى تخطى العمر الذى حددته المسابقة. سيضطر أن يعمل مرة أخرى وحده وفى ظروف صعبة. لم يكن أهله يعلمون إنه إذا أخفق، سيطلب السفر إلى فرنسا. ظلت تلك الفكرة تطارده طوال الصيف. فى فرنسا، سيجد طريقة ليتم توظيفه كعامل فى مصنع. فى الجزائر، ما من مخرج سوى أن يصبح معلم إبتدائى، مما يعنى الرخاء للعائلة بأسرها أو يعود راعى أغنام.

مع مرور الأيام، بدت امتحانات مسابقة الالتحاق بمدرسة المعلمين صعبة ومخيفة. مع مواصلة العمل، بدأ فورولو ببث اليأس فى نفسه. تخيل نفسه فى يونيو عائداً إلى القرية وقد أصبحت الكتب عديمة المنفعة،

يتخيل أنه يعود لوالدته الباكية والمتسامحة دائمًا وإلى أبيه اليأس والبائس. تخيل أيضًا حقد الآخرين. في بعض الأوقات، عرفت الثقة طريقها إليه. إنه يراهن على مصير عائلته، على آخر ورقة لهم. أسبوع قبل اليوم الكبير، كان ذهنه مشغولاً بتلك الأمور. جاء والده إلى المدينة ليحضر له بعض المال اللازم لتأمين إقامته بالجزائر العاصمة، خرجا إلى الطريق السريع وتمشيا في انتظار سيارة الشحن التي ستقل رمضان.

قال له والده:

– ستذهب إلى الجزائر العاصمة، سيكون هناك العديد من المتقدمين للمسابقة، ولن يتم اختيار سوى بعضكم. الاختيار يخضع دومًا لمحض الصدفة. ستذهب إلى هناك مثل زملائك، سننتظرك بالأعلى. إذا أخفقت ستعود إلى المنزل، قل لنفسك جيداً إننا نحبك. ثم إن علمك لا يستطيع أحد أخذه منك، علمك ملك لك. الآن سأعود إلى القرية، ستعلم والدتك أني تحدثت إليك، سأقول إنك لست خائفًا.

– نعم ستقول هناك إني لست خائفًا.

المؤلف فى سطور :

مولود فرعون

- من مواليد تيزى هابيل بمنطقة القبائل العليا عام ١٩١٣.
- بعد ما أنهى دراسته بمدرسة المعلمين العليا بالجزائر العاصمة، قام بالتدريس لأعوام عدة بقرى صغيرة وفقيرة بالجزائر. وتدرج فى مناصبه حتى أصبح مفتشاً.
- قُتل غدراً فى ١٥ من مارس ١٩٦٢ تاركًا خلفه ثروة أدبية ترسم بدقة حياة سكان منطقة القبائل وسط الفقر المدقع والأحزان.

المترجمة فى سطور :

نسرين شكرى

- تخرجت فى كلية الألسن جامعة عين شمس فى عام ١٩٩٩.
- حصلت على ماجستير فى الأدب الفرنسى من الكلية ذاتها عام ٢٠٠٣.
- حصلت على الدكتوراه من الكلية ذاتها عام ٢٠٠٨ وموضوع الدكتوراه : التعبير عن التمرد عند الكتاب البربر المعاصرين الناطقين بالفرنسية من خلال رواية "غفوة العادل" لمولود معامرى، "ابن الفقير" لمولود فرعون و"قصة حياتى" لفاطمة منصور.
- حصلت على دبلوم عام فى التربية من معهد البحوث التربوية بجامعة القاهرة عام ٢٠٠٥
- تعمل صحفية ومترجمة بجريدة الـ**Progrès Egyptien** التابعة لدار الجمهورية للصحافة والنشر.
- لها مجموعة قصص قصيرة بعنوان "إناء فارغ" صدرت عن دار الحضارة العربية عام ٢٠٠٩.
- ترجمت عدة نصوص أدبية وسياسية.

التصحيح اللغوى: **محمد عبد المحسن**

الإشراف الفنى: **حـــسن كامـــل**

قرية في جبال منطقة القبائل في بداية القرن العشرين، هي مسرح الأحداث؛ حيث تعيش عائلة منراد التي لا تدرك فقرها لأنهم بمنتهى البساطة مثل الآلاف من الأسرى، يعود مولود فرعون في رحلة عبر الزمن ليروي سيرته الذاتية، نشاهد معه الدروب الوعرة التي سلكها ليغير قدره ومصيره؛ قدر لم يكن يسمح له سوى أن يكون راعي أغنام أو فلاحاً بائساً. "ابن الفقير" تحكي عن نوع خاص من التحدي والرفض لواقع أليم، نعم إنه تحد عظيم بين واقع مخيف وإرادة لا تلين. هذه شهادة لحكاء متميزٍ تجعله يضاهي مكسيم جوركي وچاك لندن؛ ليصبح بذلك هذا العمل من كلاسيكيات الأدب الجزائري.

فى حوار مع إحدى الصحف الجزائرية يقول مولود فرعون: "كتبت "ابن الفقير" في سنوات الحرب المتشحة بالسواد، على ضوء قنديل زيت، ووضعت في هذا العمل أفضل ما بداخلي".

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح